الشَيخ عَبدالله العَلايلي

مَثَلُهُنَّ ٱلأَعْلىٰ

السَيّدَة خَديجَة

دار الجديد

☎ : ٣٤٣٧٥٢ ـ ٣٥١١٠٢
ص. ب: ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان
التّنضيد: علي حمدان
الخطوط: علي عاصي/بسّام عنداري
تصميم الغلاف والاشراف الفنّي: طلال حاطوم

هذه الطبعة هي الرابعة من كتاب مَثَلُهُنَّ الأعلى. سبقتها: طبعة أولى صادرة عن «مؤسّسة كتاب الشّهر» (بغداد، ١٩٤٨)، وطبعة ثانية صادرة عن «دار الحكمة» (بيروت، ١٩٥٦)، وطبعة ثالثة صادرة عن «الأهليَّة للنشر والتوزيع» (بيروت، ١٩٨٣).

رَجْعُ حكايةٍ لداعيةِ التأليفْ

يدٌ كريمةٌ كانتْ للقَدَرِ عندي، يوم اتَّفَقَ وأُنشيءَ ببغدادَ سَنةَ ١٩٤٨، مُؤسَّسَةُ كتابِ الشَّهر.. وكانَ أَنْ تَوَجَّهَتْ إليَّ، بافْتِتَاحِ سِلْسِلَتِهــا ـ وأَنا مَصْرُوفُ السَّعْيِ آنَذاكَ، مَعَ مُنَظَّماتِنا النِّسْوِيَّةِ بلُبنانَ في مجالِ تأكيدِ الذَّاتِ وتَوكِيدِها، حُقُوقاً ووَاجِبَاتٍ ـ فكَانَ أَن اسْتَوْحَيْتُ ذِكْرَى تِلْكَ الَّتي عَنْ يَدِها جاءَ العَطاءُ العَبْقَرِيُّ، ذِكْرى السَّيِّدةِ خَدِيجةَ رَاعِيَةِ النُّبُوَّةِ والنَّبِيِّ.

ومِنْ حُسْنِ الحَظِّ، أَنَّ التَّكليفَ أَتى مَعَ هَـذِهِ المُناسَبَةِ، لأَخْتَارَ مَثَلاً أَعْلَى، مَنْ كانَتْ صُرُوفُ حَيَاتِها تَنْطِقُ: أَنَّ الوَاجِبَ أَكْبَرُ مِنَ الحَقّ.. وأَعْنِي تُؤَكِّدُ: أَنَّ الوَاجِبَ ـ على المَرءِ والمَرأَةِ، الرَّجُلِ والرَّجُلَةِ، إزاءَ المُجتَمعِ وحِيالَ الفِكْرَةِ الصَّانِعَةِ لمَعَارِجِه، الصَّائِغَةِ لِمَراقِيهِ ـ هُوَ الأَكْبَرُ عَلَيهِ، مِنَ

الحَقِّ لِهَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ، أو في حَدٍّ أَدْنَى، هُما قَدْرٌ سَوَاءٌ.

«وَأَنْ لَيسَ لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعَى».. خُلاَصَةُ وَعْيِ القِيمَةِ في مَنْطِقِ الحَقّ، وجاءَت السيدةُ مُتَجَسِّدَ هَذا الوَعْيِ في دُنْيَا النَّاسِ، لِتَكُونَ حِكَايَتَهُ؛

وأَعْنِي حِكَايَةَ المُعْجِزِ، وأَنَّهُ في حَدِّ المُسْتَطاعِ...

عبدالله العلايلي
١٩٩٢

مُقَـــدِّمَة

أنْ أُصيبَ القصدَ كُلَّهُ فأحكي حكايةَ بَياضِ الطُّهْرِ بسوادِ هـذا الحـرفِ، مطمحٌ أسْتَحْيي أنْ أزعَمَـهُ. بـلْ لَعَـلَّ الحـرفَ في وَعْيِـهِ الأقصى، مـا زَعَمَ لنفسِـهِ شيئاً فـوقَ أنَّـهُ قُـدرةُ التـرابِ على رَسْمِ الأثَر... وكان فضلُهُ من بَعْدُ وكان إدْلالُـهُ، في أنَّهُ أثَـرٌ يَتَلَفَّتُ، وهو في تَلَفُّتِـهِ يُشير... ثُمَّ يُغْمِضُ الحـرفُ جَفْنَهُ، وتنقـطعُ به عمَّـا وراءَ الاشارةِ الكبرياءُ.

وأنا بالحرفِ ـ وهذا شأنُهُ ـ مـا كنتُ لأبلُغَ، حتّى جِيالَ مـواثِلِ الوجودِ الماديِّ، مَبْلَغاً يَنقُلُ همسةَ الـطِّيْبِ مِثْلَهَا في فَمِ الأزْهـار، أو أيَّةَ ارتسامةٍ أخرى تَقَعُ وتَخْطُرُ على لَوْحَـي اللَّيلِ والنَّهـار... فكيفَ بي أو كيفَ تراني حينَ أرُودُ معالمَ الوحْيِ في حِمى النُّبُوَّةِ ؟!

إنَّني حين أدنـو، لا أُعلِّلُ نفسِي بـأكثـرَ مِنْ أنْ أرجِـعَ بحـرفٍ مُلَوَّنٍ... حَظُّهُ في أنَّني غَمَسْتُهُ وأصَابَ مِنَ اليَنْبُوعِ ـ كما أرجو ـ إنْ لـم يَكُنِ الضِّياء، فلا أقَلَّ مِنْ أنْ يكونَ الرُّواء.

على أنَّ الطبيعةَ في ذكرياتِها الأولى، لم تَكُنْ تعرِفُ الألمـاسَةَ المُشِعَّةَ، إلاَّ أنَّها أضـلاعٌ عَتَمَةٍ في قـطعةِ فَحمٍ، صَلَّتْ صَـلاتَهَا في

محرابِ الكونِ، فأفْرَغَ عليها مِنْ حقيقتِهِ. . . . أيْ أفرغَ عليها هذا الشَّيءَ الذي به تُضيء.

هذا الشَّيء الذي تقولُ هي عنهُ: إنَّهُ بعضٌ مِنْ تَجَوْهُرِ المادَّةِ بالمعنى، فشأنُها أنَّها دَوْماً في صلاةٍ. . . وتقولُ عنهُ طبيعةُ الشَّهوةِ فينا: إنَّهُ بعضٌ مِنْ مَسِّ المادَّةِ بالزينةِ، فشأنُنا أنَّنا دَوْماً في فِتْنَةٍ.

فما أَصَمَّنَا أنْ لا نَسْمَعَ، وفي كُلِّ شيءٍ ـ أيِّ شيءٍ ـ نِداء. . .

ثُمَّ لا أطمعُ لِفَحْمَةِ هذا القلمِ الذي أُقَلِّبُهُ ـ وقد أطْلَقْتُ لها في مجرىً يَصِلُهَا بالأقداسِ، أقداسِ الرُّوحِ، وليسَ في عبارتِها الأرضيةِ أيضاً ـ إلَّا حظُّ تِلكَ الفحمةِ التي لا تَفْتَأُ تَبُثُّ خَبَرَهَا، بما تَبُثُّ مِنْ سنىً يَمُدُّ به سناء.

والقلمُ الذي لا تَضَعُ في حروفِهِ طبيعةَ معناكَ على ما أَرَدْتَ، يَضَعُ فيها طبيعةَ معناهُ على ما أراد. . . وطبيعتُهُ ليست إلَّا بعضاً من حَجَرٍ في بعضٍ مِنْ خشبٍ، جُهْدُهُ أنَّهُ يَمُجُّ ويجري، بشيءٍ كالظمأ على شيءٍ كالجَدْبِ، لا تَطرِيَةَ ولا جَمَالَ، ولا روحانيَّةَ ولا حياة.

ومهما كانَ القلمُ صَنَاعاً على خَلْبٍ وآلتماع، فإنَّهُ لا يعدو أنْ يكونَ خَلْبَ سرابٍ وآلتماعَ آل. . . على أنَّ الزُّخرُفَ قد يكونُ له مَسُّ البهجةِ حِينَ تعتصِرُهُ في نفسِكَ، ولكنْ نَدَرَ أنْ كانَ لهُ مَسُّ الاطمئنانِ فيها.

* *

وبعدُ، فهذِهِ فصولٌ من الماضي المُشْرِقِ السَّخيِّ بالإشْراقِ، أردتُ أنْ أعْقِدَ بينها عَقْدَ خيوطِ الشُّعاعِ، فتظهرُ كبيرةً كبيرةً، لا بما

أُضفي عليها مِنْ تألُّقٍ هُوَ في ذاتِ نفسِها، بل بما أُساعِدُ على أنْ تُضْفيَ علينا مِنهُ فتعمل فينا عَمَلَهَا الذي هو حَظُّنا من التاريخ.

على أنَّ حكايةَ الحاضِرِ من الماضي، وحكايَتَهُما جميعاً مِنَ المستقبلِ، هي بعينِها في هذِهِ وهذِهِ، حكايةُ الحجرِ من الحجرِ، في مدى بناءٍ بعيد، واحِدَةٌ تُلاحِمُ واحدةً على نَحْوَيْنِ مِنَ الفعلِ أو الانفعالِ. . . وأُعْجُوبَةُ التاريخِ في ذلكَ كُلِّهِ، أنَّهُ البِنايةُ التي تُلاحِمُ بينَ المادَّةِ والحَياةِ، بين المكانِ والزَّمانِ والكائنِ، في الفكرِ، لِحاماً عَجيبا.

وشخصيَّةٌ كالتي نتناولُها في هذا الكِتابِ بالحديثِ، كانَ حاضرُهَا تعبيراً عَنْ هذه المُلاحَمَةِ: بين الواقعِ الماديِّ للمُجْتَمَعِ يومَذاكَ، وبين واقِعِها الشخصيِّ الحيِّ، على شكلٍ مِنَ التَّكْيِيْفِ الرفيعِ لهُ، بَدَا جليّاً في مظهرِ نُبْلِ التَّضحيةِ.

بينما هي، أي هذِهِ الشخصيَّةُ حينما غَدَتْ تاريخاً، تُرينا كَيْفَ آستحالتْ تعبيراً عن مُلاحَمَةٍ في الفكرِ بَينَ المادَّةِ والحياةِ فَوْقَ حدودِ الزمن. . . أيْ تُرينا كيفَ آستحالتْ تعبيراً عن وَحْدةٍ إنسانيةٍ شَائعةٍ، تَجِدُ نَظائرَهَا في شخصياتٍ أُخرى لا تَعدُو أنَّها عباراتٌ إنسانيةٌ خَالِصَة.

وهذا المَثَلُ يُمْكِنُكَ آعتمادُهُ في قَصْدِ السبيلِ إلى آسْتيضَاحِ مَفهومِ التَّاريخِ الَّذي نَطويهِ: على أنَّهُ المُلاحَمَةُ بَيْنَ ما هُوَ ماديٌّ وما هو حَيَويٌّ في الفِكْرِ، أو في صَيرورتِهِ. . . ونَعني الطَّاقةَ المُنْطَلِقَةَ إلى تَحَيُّزٍ آخرَ جديدٍ، في الزَّمَن.

ومن ثَمَّ لا يبقى عَسِراً أبداً أنْ تَرَى التَّاريخَ كَيْفَ هُوَ مقبرةُ الحدودِ من أيِّ نوعٍ ، وكيفَ يَكونُ لنَا مِنهُ ما هُوَ أشبهُ بمَعْمَلٍ لتفجيرِ الذَّرَّةِ، ذَرَّةِ الآنَ مِنْ قُيودِها في الزَّمانِ والمكان، لِتُضْحِيَ طَاقَةً تَظَلُّ ساريةً، وتظَلُّ مصدَرَ تَوْليدٍ وإمدَاد . .

ومنْ هذا المفهومِ الذي نُطالِعُ به للحاضِرِ وللتَّاريخِ ، نَسْتَخْلِصُ ونخرُجُ بنتائجَ ضخمةٍ، تَتَّصِلُ بقضيَّةِ القيمةِ العَمَليَّةِ، وما تَسْتَتْبِعُ من قضايا الإخْفاقِ والنَّجاحِ وما إليهما، بِحَيْثُ لا نَعْيَا مِنْ بَعْدُ بفهمِ ما وراءَ المظاهِرِ مِمَّا لَهُ صِفَةُ الحقيقَةِ.

فحِيْنَ نَتناوَلُ اليومَ بالدَّرْسِ مُجْتَمَعاً ما ـ ولْنُخَصِّصْ نِطاقَ النَّظرةِ فنَقُولُ مُجْتَمَعاً كالمجتمَعِ العَرَبيِّ المُعَاصِرِ، مُتَتَبِّعينَ فيه مَطارِحَ القيْمَةِ، والبواعِثَ العامِلَةَ التي تَشُدُّهُ إلى النَّجَاحِ أوْ تَدْفَعُ به إلى الإخْفاقِ ـ يَنبَغِي أنْ نُنْعِمَ النَّظَرَ قَبْلَ أيِّ اعتبارٍ آخَرَ، فيما هُوَ مُتَوَفِّرٌ هُناكَ مِنْ مُقَوِّمَاتِ هذه المُلاَحَمَةِ، وفيما هُوَ مُتَمَتِّعٌ بِهِ منها. . . ونَحنُ، مِنْ وَرَاءِ هذه النَّظرةِ، نَستطِيعُ الحُكْمَ بِما لا يَنْحَرِفُ عن الحَقيقةِ أو يُخْطِىءُ وَجْهَهَا.

ففي المَثَلِ الذي ٱلتَزَمْناهُ، لا نَعْثُرُ في كُلِّ المجتمعِ العرَبيِّ بمُلاحَمَةٍ، بلْ بٱستمرارٍ لماضٍ ، مِنْ حَيْثُ إنَّهُ مجتمعٌ مسبوقٌ بكَثيرٍ مِنَ الصِّفاتِ الأساسيَّةِ المُكَوِّنَةِ، التي تَدْخُلُ اليومَ في خَدِّ الإمكانيَّاتِ المَاديَّةِ أوْ ما نَدْعُوه بالواقِعِ الماديِّ.

وفَقْدُ المُلاحَمَةِ دونَ رَيْبٍ، معناهُ فَقْدُ الحاضِر. . . وهذا بِدَوْرِهِ

يَسْتَتْبِعُ عَدَمَ «التَّأَرُّخِ»، أيْ عَدَمَ القابليَّةِ ليَكُونَ تاريخاً، أو لِيَدْخُلَ في حِسابِهِ إلّا على وَجْهٍ من السَّلبِ.

* *

وفي هذِهِ العُجَالَةِ ـ التي أردْناها مَدْخلاً خَالِصاً يُوضِحُ بَعْضَ الإيْضَاحِ، ويُفَسِّرُ بَعضَ التَّفسيرِ، ما نَحنُ مَسُوقونَ بالذَّاتِ إلى بحثِهِ ـ ليسَ يَعْنينا أنْ نَتَوَسَّعَ في البَيانِ والتَّطبيقِ بأَكْثَرَ مِمَّا فَعَلْنا، فما نَتوخَّى هُوَ أنْ نتحقَّقَ مِنْ أنَّ الشَّخْصِيَّةَ، وأعْني شَخصيَّةَ خديجة بنِتِ خُويلدٍ، التي نَخْتَصُّهَا في هذا الكِتابِ بالحديثِ، كانَتْ بحَاضِرِها وتاريخِها، أبْلَغَ مَظهرٍ مِنْ مَظاهِرِ هذِهِ المُلاحَمَةِ الفَذَّةِ.

فلم تَأتِ مِنْ تاريخِ النُّبُوَّةِ وقُصارى أمْرِها أنَّها وَجْهٌ مِنْ وُجوهِ الأَخذِ، بلْ أتتْ ولها أيضاً حَظٌّ أيُّ حَظٍّ مِنَ العَطاءِ.

ومَنْ ذا الذي يَشُكُّ في أنَّها كَانَتْ شَيئاً كثيراً، مِنْ عَمَلِ النُّبُوَّةِ وسَعْيِ النُّبُوَّةِ... ثُمَّ مَنْ ذا يَشُكُّ، في أنَّ النُّبُوَّةَ بينَ عَزْمَتِها التي لا تَلينُ، ومَعينِ قلبِها الذي لا يغَيضُ وَجدَتْ نُقْطَةَ آنطِلاقِها المُجَنَّحِ.

ويَميناً غَيرَ حَانِثَةٍ، بأنِّي ما أَخَذْتُ هذا القَلَم مَرَّةً، ودَنْوتُ مِنْ سُدَّةِ عَليائِها إلَّا عَرَتْني رَجْفَةٌ، هِيَ رَجْفَةُ الشَّاعرِ بالجَلالِ المُفْعَم... وشأنُهُ أنْ يَضيقَ التَّعبيرُ بِسِرِّهِ، لِيُشْرِعَ للقلْبِ بابَ تَأمُّلِهِ.

فِي مَدِينَةِ الأَوْثَان

هُنا في مَكَّةَ.. التي غَدَتْ بَعْدَ حِينٍ، مَهْبِطاً مِنْ مَهابِطِ الوَحْي، لِتَثْبُتَ في الإسلامِ على أنَّها أضخمُ رُموزِهِ، كُنْتَ ترى ـ وكأنَّكَ مِمَّا ترى على رِيشَةٍ مِنْ جَناحِ حُلُمٍ ـ دنيا لا تَقَعُ مِنها العَيْنُ على آفاقٍ ولا حُدودٍ، دُنيا مِنْ حَيْرَةِ الفِكرِ، وظمأِ القَلبِ الضَّارِبِ في سَراب.

والحَيْرَةُ، حِيْنَ تَنْعَقِدُ على ظَمأٍ لا تَنْقَطِعُ عَنهُ ولا يَنْقَطِعُ عَنْها، تَشَقَّقُ ـ وهذا دَأْبُها ـ عَنْ أفانينَ: مِنها في الوَهْمِ، ولكنَّهُ الضَّارِعُ المريضُ.. ومنها في الخَيالِ، ولكنَّهُ القَائمُ عِنْدَ مُنْبَسَطِ التِّيهِ.

وكانت مَكَّةُ يومَذاكَ، هي قِصَّة هذا الوَهْمِ، وقِصَّة هذا الخيَالِ، فيما وَعَتْ مِنْ وثنيَّةٍ باهتةٍ غيرِ ذَاتِ حَرارةٍ، آنْبَعَثَتْ تَتَداعى على ذَاتِ نَفسِها وتَنقطِعُ خُيوطُها في شَكْلِ أزمةِ رُوحٍ... إتَّخَذَتْ عِنْدَ نَفَرٍ بَاديةَ جُحودٍ يَعْبَثُ، وعِنْدَ نفرٍ آخرَ، باديةَ حَياةٍ لا تَأْمُلُ، وعِندَ غَيرِ هَؤلاءِ وهَؤلاءِ: بَدَتْ آونةً بشكْلِ تأمُّلٍ فَقيرٍ، قَصيرِ القَوادِمِ غيرِ موفُورِ الخَوافي، فَشأْنُهُ مهما أعْمَلَ جَناحَيْهِ أنَّهُ يُسِفُّ ولا يَعْلو. وآونةً بشَكلِ نُشدانٍ بَهيمٍ يَدُورُ بِمَرارَةٍ مِنْ نفسِهِ على نفسِهِ،

كالعَهْدِ بشحيحِ المُتنبّي وقَدْ «ضَاعَ في التُّرْبِ خاتَمُه».

على مِثلِ هذه الصُّورَةِ، أو على نَحْوٍ لا يَبْعُدُ عَنْها، كانَتْ تَتَبدّى جاهليَّةُ العَرَبِ المُتأخِّرَةُ، في مَجْلى وثنيَّتِها المُصَوَّحَةِ الذّاوِيَةِ.

فَقَدْ كانَتْ وثنيَّةً مِنْ ذلكَ النَّوعِ المنْزوفِ كالمُومياءِ، كُلُّ ما فيها أنَّها تَقَلُّصٌ بَشِعٌ، إنْ لَمْ تُرْعِبْ، فلا أقلَّ مِنْ أنَّها لا تَروقُ... لا تروقُ العينَ ولا تَسْتهوِي الفُؤادَ، لا تحمِلُ رَمزاً ولا تَنْهضُ إليهِ.

فلَمْ تَكُنْ أبداً خصبةً مُشْرِقَةً، تَتَنَفَّسُ بالغِبْطةِ وتَشيْعُ فيها حرارةً مِنْ نوعِ حَرارةِ الحياةِ، لتكونَ لها القابليَّةُ كَيْ تَتَّحِدَ بالأحياءِ على نحوٍ مِنْ أنحاءِ الاتِّحادِ، أو لِتُصَادِقَهُمْ على لَونٍ من ألوانِ الصَّداقةِ، تُمْتِعُ الخيالَ وتَمشي فيه بِوِدٍّ رَفيقٍ.

بلْ على العَكْسِ مِنْ ذلك، كانَتْ مَجفُوَّةً لا تَرْقَى بخيالِهَا عَنْ مَادَّتِها، مادَّتِها المُنفصِلةِ مِنْ حَجَرٍ بَليدٍ قاسٍ.. وهِيَ إذا مَدَّتْ بِخيالٍ، فبخيالٍ وَحْشِيٍّ، فِيهِ يَأْسٌ وفِيهِ بُؤْسٌ، ثُمَّ لا ظِلَّ في مواقِعِها لقداسةٍ ولا لكرَامَةٍ.

ولذلِكَ لمْ يَسْتَلْهِمْهَا العربيُّ على أيِّ نحوٍ مِنَ الاسْتلهامِ... وفي شُؤونِ حَياتِهِ - الدَّائرةِ منها والدَّائمةِ - كان يَتَحَدَّاها في عَنَتٍ، إذا صَدَمَتْ لَهُ نَزوَةً، ويقَسو عليها في إصْرارٍ وفي مَوْجِدَةٍ أيضاً، مَعَ فَوْرَةِ رغبةٍ عَارِضَةٍ.

وعلى وَجْهٍ عامٍّ، كانَتْ عَلاقَتُهُ بِها عَلاقةَ خَوْفٍ لا اطْمِئْنان، وصِلَةَ حِقْدٍ لا وِدٍّ، ورَابطةَ كراهِيَةٍ لا حُبٍّ.. ومِنْ ثَمَّ كان لا يَميْلُ

إلى مَسِّهـا، إلاَّ عِنْدَ ضَـرورَةٍ مُلْجِئَةٍ، وأعني عِنـدَما يُؤانِسُ مِنْ نَفسِـهِ الضَّعْفَ حَدَّ الانْهِيَارِ، والذُّعْرَ حَدَّ الرَّجْفَةِ.

أمّا هِيَ حِينَ آعتدَادِهِ، حِينَ آطْمِئْنانِهِ، فإنَّها لا تَمُرُّ في جَوِّهِ بَلْ لا يُحِبُّ أنْ تَمُـرَّ فِيهِ. . . فـلا بِـدْعَ ـ وهي لا تَهُبُّ عَليـهِ إلا بِـريـحٍ جَديبٍ ـ أنْ كان في حِسِّهِ الأعمَقِ والأقْوَى، يَوَدُّ لو تَحَرَّرَ مِنْها.

أقولُ الأعمقَ ولاأقولُ الأوْضَـحَ، وهو يُـرافِقُ الممارسَـةَ ويَهِيجُ مَـعَ التَّحـدِّي. . حتى إذا آذَنَ لِـذلِـكَ الحِسِّ الأعْمـقِ أنْ يَتَّضِـحَ وُضُوحَهُ اللاّزِمَ، آنبعَثَ بِقوَّةٍ، وتَنفَّسَ بِهَوْلٍ وآنْصَبَّ بِتَحْطِيمٍ.

وهـذا لا غَيـرُهُ، يُفَسِّـرُ ظَـاهِـرةَ المُقـاومَـةِ الخَشِنَـةِ التي لَقِيَهـا النَّبيُّ (ص) بادىءَ بَدْءٍ، لِتَنْقَلِبَ إلى ضِدِّها تَنْكيلاً وإمْعانـاً فيه، بَعْـدَ يسيرٍ مِنَ التَّوضِيحِ، ويَسيرٍ مِنَ الزَّمَنِ.

إنَّهـا، أيْ تِلكَ الـوثنيَّـةَ، لم تَكُنْ قَـطْعـاً تَغْنَى أيَّ غِـنىً، بِدُنْيَواتٍ، كالتي تُعْهَدُ في غَيرِها، بدُنيواتٍ مَشبُوبةٍ على كُـلِّ نحو. . فهي للحُبِّ إنْ أَرَدْتَ الحُبَّ، وهي للجَمَـالِ ساعـةَ تُريـدُ الجمـالَ، وهِيَ للرّغَبـاتِ كَيْفَ شِئْتَ، وهِيَ فوقَ هـذا، دَانيةٌ حَتَّى لَتُخَـالِطُ في آمتزاجٍ، وقَرِيبةٌ حتَّى لَتَتَحَرَّكُ بإرادةِ الشَّهوةِ المُخَامِرَةِ.

نَعَمْ لَمْ تَكُنْ مُتْرَعَةً بِمْثِلِ هذا الخِصْبِ بَلْ لَمْ تَكُنْ عِند طَـرَفٍ مِنـهُ. . . وكانَ هـذا دُونَ رَيْبٍ، مِنْ حَظِّ الدَّعـوةِ الهاديـةِ الجديـدةِ، وكانَ لخَيرِها.

فمـا تَمْلِكُ مثلُ هـذه الوثنيَّـةِ مقاومـةً أو نَصيبـاً منهـا، وهيَ إذا لَبِسَتْ أَرْدِيَتَها، وشَدَّتْ على نفسِهـا بَعْضَ صُوَرِهَـا، فليسَ لأنَّها قُـوَّةٌ

حَقـاً، بَلْ لأنَّ في طَبيعتِهـا طَبيعةَ الهَشِيم ِ، ومـا لَهُ مِنْ لُهبَـةٍ سـريعـةِ الاشتعـال ِ بعيدةِ السُّـطوع . . ولكِنْ في آشتعَـالِهـا وسُـطوعِهـا مَعْنَى الرَّمادِ، وفي سُرعَتِها سُرعةُ الفَنَاءِ.

إنَّ المُقَـاوَمَـةَ الحَقيقِيَّـةَ تَقتَضِي الأعْمـاقَ، وتلْتمِسُ الجُـذورَ المُغوَّرَةَ المُتَمَادِيَةَ. . . وما كانَ الهَشيمُ هَشيماً، إلَّا لأنَّهُ جاءَ قَدْراً من الوَرَقِ، أي الشَّكْل ِ، وما جَاءَ قَدْراً من الجَذْرِ، أي الحَقيقَةِ.

فلَمْ تَعْتَرِفْ بِهِ التُّرْبَةُ لتُعْـطِيَهُ، لأنَّـهُ لم يَعْرِفْهـا، لأنَّهُ لَمْ يَتَّحِـدْ بأغوارِها آتِّحادَ الوُجُودِ، فَظلَّ ـ على أنَّهُ يُغطِّي منها الأَدِيم ويَكْثُرُ فيها كَثْـرَةَ حَبَّاتِهـا ـ شَحَاذَةً في النَّبـاتِ. . . والتُّربـةُ يَوْمَ تَسْخُـو سَخَـاءَهَـا الأَنْدَى، قَدْ تُفْسِحُ لَهُ في مَجال ِ التَّبنِّي ولكِنْ لِيَضِيقَ عَنْهُ رَحِمُهـا في مجال ِ البُنوَّةِ.

وكانَ لِتِلكَ الوثَنيَّةِ في نَفْس ِ العَرَبِ حَظُّ هـذا الهَشيم ِ، لَيْسَتْ تندفِعُ فيهـا آنْدفـاعَهَا إلَّا بمقـدارٍ، فَظلَّتْ «شَحـاذَةَ عَقيدةٍ» مثلمـا هُوَ الهَشِيمُ، «شَحَاذَةُ نَباتٍ».

وماذا تَحْسَبُ وَرَاء هذا، وأنتَ تَجِدُ مِنْ كَرامَـةِ مَحَلِّهَا وقـداسَةِ منزِلِها مِنَ الوجدَانِ، ما تُطالِعُكَ بِهِ رِوَايةٌ تُشْهِدُكَ رَجلاً مِنهُم، يَضْرِبُ بِصَلَفٍ وكِبـريَاء رأسَ صَنَمِـهِ، بفَدَاحَـةٍ، حِينَ خَرَجَتْ على غَيـرِ مـا يَرْغَبُ ويَهوى. . وأُخرَى تُشْهِدُكَ آخـرَ، يأْكُـلُ في رغبَةِ مَعِـدَتِهِ رَغْبَـةَ مُعْتَقَـدِهِ. . وثَالثـةٌ تُريـكَ بَيْنَ هذا وهـذا، وَجْهَ رَجـل ٍ أَبْصَرَ مـا مَلأهُ سُخْريةً، وآشتدَّ به هُزْءاً، فما تَلَبَّثَ أنْ هَتَفَ:

أَرَبٌّ يَبُـولُ الثُّعْلُبـانُ بـرأسِـهِ   لقـد ذَلَّ مَن بَـالَت عَليـهِ الثَّعـالِبُ

إلى رواياتٍ لا تُحصى، وكُلُّها تَضعُ تلكَ الوَثَنِيَّةَ مَوضِعَ القلقِ، وتُقَدِّمُها في نسيجٍ خَلَقٍ. ثُمَّ تنعطِفُ لتُريَكَ مكانَ البَرَمِ بها، في غَيرِ حدٍّ من نُفوسِ القومِ، ومكانَ الضِّيْقِ بأشيائِها في آزْوِرَارٍ وتَجَهُّم.

وفي النِّهاية تُخرجُ لنا تلكَ الرِّواياتُ، عربيَّ الجاهليةِ ذلكَ البعيدَ، إنساناً لا قداسةَ لشيءٍ فوقَ ذاتِهِ، ونعني: الذَّاتَ في نِطاقِ الجسدِ وما يرشَحُ به من إملاءاتٍ، فيها من عَملِ الأَعصابِ، وفيها من تَحَيُّزِ الشُّعورِ بالوجود.

فَقَدْ رَأَيْنا عندَ آمرِىءِ القيْس أيَّةَ قداسةٍ هي قداسَتُهُ لَوثَنِهِ، تلكَ التي ذَابت في وَهْجِ أُوارِ الانْتِقَامِ وتحتَ حرارةِ الرَّغبةِ الحاقِدَةِ.

ومثلَهُ رَأَيْنا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الخطَّاب، يومَ أكلَ صَنَمَ التَّمرِ في غيرِ مُبالاةٍ بِقَدَاسةٍ، ولا آكتراثٍ بمثاليَّةٍ، كبيرُ أُمرِها عندَهُ، أَنَّها كَورقةِ الخريفِ ذَاويةٌ شَمْطاءُ.

وما كان ذلكَ لشيءٍ في النَّفسِ العربيَّةِ يجعَلُها لا تَدينُ بِمَثَلٍ أَعْلَى ولا تَلينُ لَهُ، وَتَرْتَفِعُ بمحلِّها لِيَقَعَ كُلُّ معنويٍّ دونَها.. بَلْ لمكانِ هذا الفقرِ المرعِبِ، فيما من شأْنِهِ أَنْ يُخْصِبَ أديمَ المُعْتَقَدِ، ويُترِعَ مجاريَه في جنباتِ النَّفسِ التي ظلَّتْ ظامئةً حرَّى.

وأنتَ حِينَ تُطْعِمُ الظَّماَ الظَّماَ، وتُنْدي اللُّهاثَ باللُّهاثِ، تصنعُ طبيعةَ النفسِ صُنعاً، للجُحود.

وهُنا تبرزُ معجزةُ الدَّعوةِ النَّبويَّةِ على أكملِ وجوهِها، حين تُدرِكُ أَنَّها لم تَعملْ عَملاً: كلُّ ما مِنهُ، أَنَّهُ مَسَحَ بيدٍ لِيَصْبُغَ بِيَد..

وأنَّهـا فَرَغَتْ إلى نفـوس ٍ تَخَصَّبَتْ فيهـا نـاحيـةُ الـوِجْـدانِ، مـوئـل ِ المُعْتَقـدِ، لِتَنْقُلَهـا نقلةً فقط، عن نُقـطةِ آرْتِكَـازٍ، إلى نقْـطة آرْتِكَـازٍ جديد.

وإنَّمـا كان عمـلُ هذه الـدَّعوةِ الكـريمةِ، عَمـلَ خَلْقٍ وَتَـطْهيـرٍ وَتَخْصيب، عَمَلَ صهرٍ وصَقْل لنفوسٍ عقَّـدَها الجُحـودُ، وتَركَ فيهـا أَزْمَتَهُ، تَشْتَعِلُ وتدورُ بقَيْظِها اللاَّفِح ِ . . وهو لا يَـدَعُ ندىً إلاَّ ومَسَّـهُ، ثُمَّ لا يسكُتُ عن طبيعةِ هذِهِ النفوس ِ، إلاَّ وقد أحالها صحـراءَ قانيـةً تَفهَقُ بما تَبَلْوَرَتْ إليهِ مِنْ رمال.

والرِّمالُ تُرْبَةٌ صَنَعَها اللاَّفحُ حبَّاتِ ظمأٍ، فهي لا تَرْوَى، ومهما آمتصَّتْ من سحـائبَ تَشُدُّ سحـائِبَ تـظلُّ لاهثـةً، ثُمَّ لا تحـولُ بمـا آمتَصَّت، أرْضاً طيِّبةً.

والنَّفسُ المُـرْمِلَةُ، أو النَّفسُ التي آستَـوتْ من طَبيعَتِهـا على رِمالٍ، تَظلُّ مَلعبَ أعَـاصِيرَ، لا تَثْبُتُ من أمْـرِها على حَـال ٍ. . فهي تَنْزَلِقُ ولا تَسْتَقِرُّ، ثُمَّ لا تعرِفُ إلاَّ جشعَ الأَخْذِ وشُحَّ العَطاءِ.

نَعَمْ هُنا تَبْرُزُ مُعْجِزَةُ الدَّعوةِ الخالدةِ، الَّتي صَنعتِ الْوَاحَـةَ كُلَّ الواحةِ، في الصَّحراءِ كُلِّ الصَّحْراء.

ولِنُـريَكَ بعضـاً من مآتي هـذه الوثنيَّـةِ البليدةِ، الجـاحدةِ حتَّى لحقيقتِهـا، الضَّائقـةِ حتَّى بوجـودِها؛ نَكْتفي بمثـال ٍ من أمْثِلةٍ كثيرةٍ، وَنَجْتَزِىءُ بشاهدٍ مِن شَواهدَ لا تُحْصى، وما آختيـارُنا إيَّـاهُ، لِأَنَّهُ أَبْلَغُ دلالةً من غيرهِ، ولكنْ لأنَّهُ يتَّصلُ بالشَّخصيَّةِ الَّتي هي مـوضُوعُنـا من بَعْض ِ الجوانب.

«حَدَّثَ ٱبنُ إسحقَ: أنَّ قُريشاً ٱجتمعُوا في عِيدٍ لهُمْ يوماً، عندَ صَنمٍ مِن أَصْنامِهِمْ، كانوا يُعَظِّمُونهُ ويَنحرونَ لـه ويَعكِفُونَ عليه ويُديرونَ بهِ. وكان ذلكَ عيداً لهم في كُلِّ سنةٍ يوماً، فَخَلَصَ منهم أربعةُ نفرٍ نَجيّاً، ثُمَّ قال بعضُهم لبعضٍ: تَصَادقُوا، وَلْيَكْتُمْ بعضُكم على بعضٍ. قالوا: أَجَلْ، وهُمْ: وَرقَةُ بْنُ نوفلِ بنِ عبدِ العُزَّى، وعُبيدُاللّهِ بنُ جَحشِ بنِ رِئاب، وعُثمانُ بنُ أسد بنِ عَبدِ العُزَّى، وزَيدُ بنُ عَمرو بنِ نُفَيْلٍ. فقال بَعْضُهم لِبَعْضٍ:

تعْلمونَ واللّهِ، ما قومُكُم على شيءٍ، لقدْ أَخْطَأوا دِينَ أبيهِم إبراهيم. ما حَجَرٌ نُطيفُ بِهِ، لا يسمعُ ولا يُبصرُ ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ.. يا قَومُ ٱلتمِسُوا لِأنفُسِكُم، فإنَّكُم واللّهِ ما أَنْتُم على شَيء.

فتفَرَّقوا في الْبُلْدانِ يلتمِسونَ الحَنيفيَّة دِينَ إبراهيم... فأمَّا وَرقَةُ بنُ نوفل ، فٱستحكم في النّصرانِيَّةِ وٱبْتاعَ الكُتُبَ مِن أهلها، حتَّى عَلِم عِلماً مِن أهلِ الكِتابِ، وأمَّا عُبيدُاللّهِ بنُ جَحْش ، فَأَقامَ على ما هُو عليه مِن الالْتبَاسِ حتّى أسْلَمَ، فلمَّا قدمَ الحَبَشَةَ تنصَّرَ، وأمَّا عُثمانُ بنُ الحويرثِ، فقدمَ على قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ فتنصَّرَ، وحَسُنَتْ عندَهُ منزلَتُهُ.

وأمَّا زيدُ بنُ عمرو بنُ نُفيْل، فوقفَ، فلم يدخلْ في يهوديّةٍ ولا نصرانيَّةٍ، وفارقَ دينَ قومِهِ، فٱعتزلَ الأوثانَ والمَيْتَةَ والدَّمَ والذَّبائِحَ التي تُذبحُ على الأوثَانِ، وَنَهى عن قتلِ الموؤودةِ، وقالَ: أعبُدُ ربَّ إبراهيمَ، وبَادَى قومَهُ بِعيبِ ما هُمْ عَليهِ.

وكانَ يُرى مُسنِداً ظهرَهُ إلى الكَعبَةِ وهُوَ يقولُ: يا مَعشَرَ قُريْشٍ، والذي نَفسُ زَيد بنِ عمرو بِيدِهِ، ما أصبحَ أحَدٌ على دين

إبراهيمَ غيرِي. ثُمَّ يقولُ:

أَللَّهُمَّ لَوْ أنِّي أعلَمُ أيَّ الوجُوهِ أحبَّ إليكَ عَبدتُكَ بهِ، ولكنِّي لا أعلمُهُ. ثُمَّ يَسجُدُ على رَاحتيهِ. ولهُ شِعرٌ كَثيرٌ بِهذَا المعنى ومنهُ:

أَرَبّاً واحِداً أمْ ألْفَ رَبٍّ أدينُ إذا تَقَسَّمتِ الأمورُ
عَزَلْتُ اللاّتَ والعُزَّى جميعاً كذلِكَ يفعلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
فلا عُزَّى أدينُ ولا ابنَتَيْها ولا صَنَمَيْ بَنِي عمرٍو أدورُ
ولا غَنَماً أدينُ وكان ربّاً لنَا في الدَّهْرِ إذ حُلمِي يَسيْرُ
عَجِبتُ، وفي اللّيالي مُعجباتٌ وفي الأيّامِ، يَعْرِفُها البَصيرُ

واستمرَّ بِهِ شأنهُ، حتَّى خَرَجَ يَطلُبُ دينَ إبراهيم، ويسألُ الرُّهبانَ والأحْبارَ، حتى بَلَغَ المَوْصِلَ والجزيرَةَ كُلَّها، ثُمَّ أَقبَلَ فجالَ الشّامَ جميعاً؛ وعلى أنَّه شَام اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، فلمْ يَرْضَ شَيئاً مِنهما، فآبَ يطلُبُ مَكَّةَ، حتَّى إذا توسَّطَ بِلادَ لخمٍ عَدَوْا عليه فقَتَلوهُ»[1].

هذِهِ الرِّوايةُ تَحمِلُ إلينا الكَثيرَ الكثِيرَ، وتُوقِفُنا على ما نَودُّ أنْ نقِفَ عَليهِ، وتُرينا بكُلِّ وضوحٍ مَكانَ الرَّيْبِ وَجِدَّتَهُ مِن النَّفسِ العربيَّةِ، ومَكانَ الضِّيقِ بهذا الرَّيْبِ، ورَغبَةَ التَّحرُّرِ مِنهُ، على شكلٍ.. ولا بأسَ بأنْ يكونَ أيَّ شَكلٍ، فهو أَحَبُّ وأَغنى وأَمتَعُ.

ولا تَعجَلْ فَتَظُنَّ أنَّ هذا الاستِخفَافَ المُرتَابَ، إنَّما خَالَطَ هذا النَّفَرَ حَسْب، فكانوا مِنْ مُجتمَعِهِم الطَّليعَةَ، ومِنْ كَثرَتِهِم الصَّفوَةَ

(١) رَاجع آبنَ هشامٍ في السِّيرَةِ ج ١، ص: ٢٤٢ ٢٤٨.

المُختَارَة. . أمَّا الجماهِيرُ الغَفيرةُ الضَّخْمَةُ، فقد كانت قانعةً مُغتبِطَةً، يَلَذُّ لها ما تُمـارِسُ مِن طُقوسٍ وتُبـاشِرُ من شَعـائِرَ، ومـا تَصْطنِـعُ مِن عباداتٍ تَجدُ فيها عِبارَةَ تأمُّلِها. . وما يُدْرينـا، لعلَّها كـانت تَجِدُ فيهـا أكثرَ مِن ذلِكَ، تَجِدُ فيها تعبيراً أَتَمَّ أوْفَى.

هذا صَحيحٌ، لَوْ كَانَتِ الرِّوايةُ المَـذكورَةُ هِي كُـلُّ ما لَـدَيْنا مِن كُـوَى ونَوافِـذَ نُطِلُّ منهـا، ونَستَشِفُّ مِن خِلالهـا، ولكنَّ الـرِّوايـاتِ ـ وأريْنـاكَ جانبـاً منها ـ كَثيـرةٌ كثرةً مُـطلقةً، وهِيَ كـافَّتُها بمكَـانِ ذلِـكَ الرَّيبِ المُسْتَخِفِّ، والجُحودِ المُتَنَكِّر.

على أنَّ هـذه الرِّوايـةَ وإنْ تَكُ مِثـالاً خَاصّـاً، فإنَّنـا وضَعنـاهـا مَوضِعَ البَيانِ والشَّاهِـدِ، لأَمْرٍ بعينِـهِ، لِتَجيءَ مُوضِحَـةً مبلَغَ الارتِياب وَحِدَّتهُ وشُبُوبَهُ.

وهِي في هذا القَصدِ وافيةٌ أكبرَ إيفاءٍ، ومُعلنَةٌ أبلغَ إعلانٍ، بأنَّه كـان رَيباً حَـادّاً، يتميّزُ بـالعُنفِ واللَّوعـةِ، والتَّسـاؤلِ المنـطَوي على مَرارَةٍ. . . وليسَ على فجيعةِ هذهِ الوثَنِيَّةِ في قُلوبِ أبنائِهـا المتحَرِّكَـةِ فِيهم بِظُفْرٍ ونَابٍ، مِن شخصٍ «زَيد بنِ عَمروِ بنِ نُفَيْل» ذلِكَ الرَّجُلِ المَأْسَاةِ، وبعبارَةٍ أُخْرَى، ذلِكَ الرَّجُلِ الذي كان يحمِلُ المـأْساةَ في الضَّميرِ، يُريدُ لَوْ يتخَفَّفُ منها على أيٍّ نحوٍ.

إنَّـه يُحاوِلُ أنْ يهـرُبَ ولكِنْ عَبَثاً يَسْعَى وعَبثـاً يُحاولُ، فهـربُـهُ منهـا هربٌ مِن نفسـه، وما كـان ذلِـكَ هَيِّـناً يَسيـراً، ومـا كـانَ ذلِـكَ مُسْتطاعاً سائِغاً. . . فَجَدَّ يُوسِعُ الخَطْوةَ هُنا وهُناكَ، ضَارِباً بينَ فِجَاجٍ وسُهوبٍ، يلْتمِسُ يَقِينَهُ الضَّائِعَ وآطْمئنانَهُ الشَّرُود.

إنَّهُ ليسَ بمُطيقٍ أَنْ يَسْكُنَ إلى مـا عِندَهُ، وهُـوَ حينَ يَسْكُنُ إليه

أَوْ حِينَ يُحاوِلُهُ، فـإنَّما يجمـعُ نفسَهُ إلى حَيْـرَةٍ بالِغَـةِ الأَسَى، لا تَفْتأُ تَدورُ عندَهُ بمثلِ مسِّ الشَّوكِ اللاَّهِبِ، وتَتوهَّجُ في خَيالِـهِ «كأطـرافِ الرِّماحِ» على حَدِّ تعبيرِ والِبَةَ بْنِ الحُبَابِ في القديم.

وَأَيُّ طَعْمٍ هُو أكثرُ مَرارَةً وأنفَذُ واخِزَةً مِن قَولِهِ:

أَرَبّـاً واحِـداً أَمْ أَلْـفَ رَبٍّ أَدِيـنُ إذا تَـقَـسَّـمَـتِ الأُمُـورُ

حينَ تُدْنيهِ إلى نفسِكَ وتَستَشْعِرُهُ مِن قَـريبٍ؟ لا شَكَّ، تَجِـدُ تَفَجُّعـاً وتَجِدُ لَـوعَةً، وتُحِسُّ بنَفسٍ آنـطوَتْ مِنْ ضَميرهـا على مِثلِ شِواءٍ، لهُ طَعْمُ الاحتِراقِ. . ثُمَّ لا رَيبَ في أنَّكَ واجِـدٌ أيضاً، حَـرَجاً كثيراً وضِيقاً بهذا الحَرَجِ، وتَفـادِياً مِنـهُ، بالاستِسـلامِ المُسْتَغْلِقِ في عبارَتِهِ الأُخْرى:

«أللَّهُمَّ لَوْ أنِّي أَعلَمُ أَيَّ الوُجوهِ أَحَبّ إليكَ عَبَدتُكَ بِـهِ، ولكِنِّي لا أعلَمُهُ. . ثُمَّ يَسجُدُ على راحَتَيهِ». . .

ومـا نَحنُ الآنَ من هذا الأَمـرِ على كبيرِ شَـأْنٍ، فإنَّـهُ سبيلُ مَن يبحَثُ الجـاهِليَّةَ وقِيمـةَ وَثَنِيَّتِهَـا، ويُؤَرِّخُ لهـذه وهـذه. . أمَّـا هِيَ في عَمَلِنـا فلا تخـرُجُ عَن أنَّها نُقْلَةٌ، يَقْتَضيها البَحْثُ، وقَنـطَرةٌ يفـرِضُهـا العبورُ، إلى تبيُّنِ الموقفِ الذي اتخذَتهُ السَّيدةُ خـديجةُ لنفسِهـا، مِن وَثنيَّةِ الجاهِليَّةِ في ظِلِّ الوثنيَّةِ.

يَقْـطعُ الباحِثُ بـأنَّ حِسَّها، لم يكُنْ إلاَّ من نـوعِ الحِسِّ العامِّ الـذي حَاولنـا عرضَـهُ في وَقْفَةٍ سَـريعـةٍ، وإدْنـاءَهُ إليـكَ في إلمـامَـةٍ قصيـرةٍ. . ثُمَّ أضِفْ إلى هـذا، أنَّهـا لمْ تَكُنْ بَعِيـدَةً عَن جـوِّ هؤلاءِ الصَّفوةِ الَّذينَ أَثْبَتْنا لَكَ مِن خبرِهِم.

فهيَ أدنَى ما تَكونُ مِن وَرقَةَ بن نوفَل بْنِ عبَدِ العُـزَّى، ودُنُوُّهـا مِنهُ كان على نَحوين من الدَّمِ والوِدِّ الفكريِّ.. وكـان هذا الـودُّ، أوِ القرابةُ الفكريَّةُ، ينتزِعُ إعجَابهـا به آنتِـزاعاً، ويحمِلُهـا على كلِّ لـونٍ من ألــوانِ الخُلودِ إليــهِ، في أشْيــاءَ مِنَ السَّكينــةِ، وأشيــاءَ مِـن الاطمئنانِ... وبالَغَ عندَهـا، حتَّى بَاتَتْ لَـهُ وهي أشْبَهُ بتلميـذَةٍ، لا تَبرَحُ تَعتَمِدُهُ في كلِّ ما يعرِضُ لها، من أمرِ نفسِها، وشؤونِ دُنْياها.

فلا جَرَمَ كانتْ مِن هذِهِ النَّـاحيَةِ أرْهَفَ حِسّـاً بما لِأشـواكِ هذه الوثَنِيَّةِ من وخْزٍ، وأصَحَّ إدراكـاً لِما في جـوهرِهـا مِن تَهافُتٍ، وأتـرَعَ فُؤاداً بالتلَهُّفِ والشَّوقِ، وأرحَبَ نفساً للتَّقبُّلِ المطمَئِنِّ، لِتَقَبُّلِ رسـالَةِ الوحي الجَديدِ... رسالَةِ الخلاصِ.

وهـذا ليسَ تَقـديـراً نحنُ نُقَـدِّرُهُ، بَـلْ جـاءتْنـا بجـانبٍ منـهُ المصـادِرُ.. فما آتَّفَقَ لهـا من عهدِ الجـاهليَّةِ، لمْ يكنْ مكفُـوفـاً عَنِ النَّظْرَةِ المتأمِّلَةِ، ولا مَقـطوعَ الصِّلَةِ بما يُـراوِدُ الطَّليعَـةَ المُنْتَخَبَةَ... هذِهِ الطَّليعَة التي تَغدو مِن كلِّ جِيلٍ، مُستقَرَّ ما يجيشُ بِهِ من أحلامٍ وأمـانٍ وتطلُّعـاتٍ، بحيثُ يكوِّنـونَ عبارَتَـهُ البارعَـةَ الأدَاءِ، وموئِـلَ ما يُخامِرُ النَّاسَ مِن مناغِمِ حُبٍّ، وحَنينٍ، هُو رَجْعُ أصـداءِ المجهولِ، وأشواقٌ كبيرةٌ تُريدُ أنْ تَتَكشَّفَ البعيدَ.

وَالسَّيِّدةُ، كما أنْبـأْنَاكَ وجَهِـدنا في أنْ نُـدْني إليكَ، كـانت مِن هذا النَّفَرِ «الطَّليعَةِ».. وعلى أيِّ حالٍ، لم تَكنْ تَبعُدُ عنهُ في مَذهَبِ تَـأمُّلِها وتفكِيـرِها، وفي مـا تختزِنُ مِن تَصـوُّرَاتٍ وأحـاسِيسَ ولَفتـاتِ مَشاعِر.

كـان مِن حَقِّها ـ وهي المَـوهوبَـةُ التي كَـأنمَّـا السَّمـاءُ تُعِـدُّهـا

للنُّهـوضِ بِعبءٍ عَظيمٍ ـ أَنْ تُفكِّـرَ، وأنْ تذهَبَ في مَـدَى تفكيـرِهـا عميقاً عميقاً. . وكانَ مِن حَقِّها أنْ تَصِلَ فكرَها بأفكارِ الآخرينَ الذينَ ينحونَ هذا المنْحَى، وينهجونَ هذا المنهَجَ. . كانَ مِنْ حقِّـها ذلكَ، لتتَّخِذَ لِنفسِها مَـوقِفـاً فكـريّـاً مُعيّنـاً، يكـونُ أقـربَ للرِّضـا وأدْعى للطُّمَأْنينة. لا سِيَّما وكُلُّ ما تحفِلُ به الْبيئَةُ، وتُقَـدِّمُهُ من مَـوادَّ فكريَّـةٍ لبِنَايَةِ العقـلِ، لمْ يكُنْ بَاعِثـاً على الثِّقَةِ بَـلْ على العكسِ، مُحَرِّضـاً على اللَّجَاجَةِ اللاَّغِبَةِ والانْدفَاعِ في تيَّارِ تَساؤلٍ عَريضٍ.

وبالفِعلِ مَالَتْ مَعَ هذهِ الرَّغبَةِ المُسْتَوفِزَةِ في نفسِها، ولَمْ تقنَـعْ بِهِ مَيْلاً فقطْ، بَلِ آنبَعَثَتْ تُشْبِعُهُ بما تُسْعِفُها بِـهِ الوسَـائِلُ الميسـورَةُ، وما لَمْ تكُنْ تَنهضُ وسائِلُها بِهِ مِن ذلكَ، تَلتمِسُ إصابَتَهُ بالسُّؤالِ.

فكُنَّـا نَراهـا ـ وكَثيراً مـا نَرَاهـا ـ غادِيَـةً رائحَـةً، تَقْصِـدُ مَثْـوى مُرشِدِها الّذي تعتمِـدُهُ (ورقَة) تَسْتَنْبِئُـهُ تَارةً عَن كُنْـهِ رُؤيا، وتـارَةً عَن مُستَغْلِقِ سِرّ.

ويَكْفي لنعـرِفَ أيَّ نَوعٍ مِن الأَفكـارِ كانَ يَشْغَلُهـا، وأيَّ نـوعٍ منها كانَتْ بالفعلِ واقِعَةً تحتَ سيْطَرَتِهِ، أَنْ نَسْتَعرِضَ بعضَ منامَاتِهـا الَّتي سَمَحَت بحَمْلِها الرِّوايـاتُ إلَيْنا. ولا أَستَعْجِلُكَ بسَـرْدِها فَسَتَمُـرُّ بِنا على منازِلِها مِن المَوضوعِ.

ولَكِنَّ المُهمَّ هُنا أنْ نُشيرَ إلى أنَّها لم تَكُنْ تَخلُو مِن هذِهِ الموادِّ الأولى (الإِلَـهِ، السَّماءِ، الأَرْواحِ، النُّـورِ) وواضِحٌ أنَّهـا مَوادُّ تَتَّصِـلُ بنوعٍ مُعَيَّنٍ مِن الأفكارِ، لا سِيَّمـا حينَ نَلجَأُ في تَفَهُّمِهـا، إلى منهَجِ التَّحليلِ الحديثِ الذي يَقْطَعُ بِنـوعٍ مُعيَّنٍ مِن الأفكارِ، كـانَ يَهْجِسُ في نَفْسِها، هُو ذلِكَ النَّوعُ التأمُّليُّ الخالِصُ.

إنَّهُ يقطَعُ بهذا، ويقطعُ عندَها أيضاً بآختِزَانٍ ضَخْمٍ لإحْسَاسَاتٍ وخَلَجَاتٍ ومشاعِرَ، بَلْ ولتَجْربَاتٍ رُوحيَّةٍ وأُخرى عاطِفيَّةٍ.

واللافت في أحْلاَمِها، أنَّها كانَتْ دَائماً بَيضَاءَ مُشرِقَةً.. ومعناهُ، أنَّ نُزوعَهَا على رُغْمِ ما يَصْدِمُهُ، كانَ مَشْفوعاً بالأمَلِ المَحْضِ، وتَرَقُّبِ الانتِصارِ.

عَلَى شِفَاهِ الزَّهَر

في بَعْضِ ولائِدِ الجَمالِ، ما يَخْلُبُ الجَمالَ نَفسَهُ.. إذا صَحَّ أنَّ للجَمالِ حِسّاً يضَعُهُ هذا الموضِعَ من الانفِعالِ، ويجري فِيهِ بهذِهِ السُّنَّةِ التي نَخضَعُ نَحْنُ لأَحْكامِها، ونَتَقَلَّبُ في دائِرَةِ مُؤثِّراتِها.

وما يُدْرِينا أنْ لا يكونَ الجَمالُ على حِسٍّ وحياةٍ!.. يَتَذَوَّقُ مِثْلَنا، فيُحِبُّ ويَكرَهُ، ويَدْنو في هَوًى لِيُبالِغَ في فِتْنَةٍ.

نَعَمْ ما أدْرانَا أنْ لا يَكُونَ كَذلِكَ، وهؤلاءِ «الأغارِقَةُ» الّذين وَعَوا الجَمالَ حَقَّ وَعْيِهِ، وباشَروهُ في أنْفسِهِم مُباشَرَةً، إنَّما تصوَّروهُ وصوَّروهُ، على أنَّهُ حَياةٌ تَغْنَى بالعاطِفَةِ مثلما نَغْنَى، وتُصِيبُ مِنها مِثلما نُصيبُ.

ومَهْما يَكُنْ - ونَميلُ إلى الاقتصادِ في التَّعبير - فَنَحْنُ نجدُنا مِنْ مَواثِلِ الجَمالِ إزاءَ شُعورٍ مُختلفٍ، يَتنوَّعُ على مِقدارِ ما في الطّبيعةِ مِن أنواعٍ، فيكُونُ خِصْباً ويكونُ غَيرَ ذلِكَ، ويكُونُ بَهجةً، ويكُونُ روعَةً، إلى إحساساتٍ لا تَنهضُ بها الكَلماتُ، إلاَّ بقدرٍ، وقَدْرٍ يَسيرٍ.

ويَظَلُّ مِن وَراءِ هذا كُلِّهِ، أَخْلَبُ الجمالِ، هُو ذاكَ الذي يَبْعَثُ قَضِيَّةً، ويقُوم مِن نَفسِهِ على عُقْدَةٍ. إِذْ يسمَحُ لشَيءٍ آخَرَ غيرِ الفُؤادِ بالتَّدخُّلِ، إنَّهُ يَسمَحُ للعقلِ بأَنْ يَتدَخَّلَ فِيهِ بِعُنصُرِهِ الفِكْرِيِّ، فَيُضيفُ إليهِ مَعْنًى لَمْ يَكُنْ من شَأنِ الجَمالِ ـ وطابَعُه البَراءَةُ ـ أنْ يُعطِيَهُ، مَعنًى يَجِيءُ جَديداً في الجمالِ.. حتّى في حِسِّ الجَمالِ نَفسِهِ.

حَقّاً إنَّ ما يَخلُبُنا في الورْدَةِ ليسَ هُو هذا الجَمالَ السّاذجَ من العَبيرِ والصّفاءِ، مِن الأضواءِ والظِّلالِ... بلْ هُو هذا، وشَيءٌ آخرُ، بتَدَخُّلِهِ يُحدِثُ قضيَّةً، إنّه ذلِكَ الشَّوْكُ المُلْتَفُّ المُكتَنِفُ، وهُو ليسَ مِن طَبيعةِ الورْدِ ولا مِنْ سِرِّهِ.

إنَّهُ بتدَخُّلِهِ نَقَلَ قَضِيَّةَ جَمالِ الوردَةِ، مِن بَساطَةٍ إلى تَعْقيدٍ، مِن وُضوحٍ إلى غُمُوضٍ، رَسَمَ تَساؤلاتٍ واستفهامَاتٍ، وبَثَّ مشاعِرَ وأثارَ خَواطِرَ، لا طَاقة لبسَاطَةِ الجَمالِ بِها، في هذِهِ وهذِه.

فَأَمَامَكَ مِن الوردَةِ في زَهرِها وشَوْكِها: لِينٌ وصَرَامَةٌ، إفتِرَارٌ وتقطيبٌ، سماحٌ وتجهُّمٌ، حُبٌّ وبُغْضٌ... وأمَامَكَ مِن هذا كلِّهِ، أشياءُ تَدْنو مِن أشياءَ، وبِتَعبيرٍ آخَرَ أَشياءُ تُثيرُها أَشياءُ.

وإذا أَنتَ من تَداعِيها كُلِّها وتَوارُدِها جميعِها، أمامَ عُقَدٍ كأَعمقِ ما يَقَعُ لَكَ، وأدَقِّ ما تَدفَعُ للفِكْرِ.. وَإذا أنْتَ مِن الوردَةِ حِيالَ حَياةٍ كَامِلَةٍ، تَحفِلُ بكُلِّ ما تَذْخَرُ بِهِ الحياةُ ذاتُها مِنِ آرْتِسَاماتٍ: إنْ شِئْتَ أَبصَرْتَها مآسِيَ، ولكِنّها جَميلةٌ، وإنْ شِئْتَ أبصرْتَها مَظْهراً مِن التأكِيدِ ـ تأكيدِ الطَّبيعَةِ ـ بأَنَّ القُوةَ للحَقِّ، وإنْ شِئْتَ سَموتَ فَأَبْصَرْتَ: بأنَّ الشّوكَ أيضاً يَتشَقَّقُ عن طِيبٍ، وأنَّ قَلْبَ القُبحِ، قَدْ

يَفيضُ بأبرعِ الجَمالِ أنداءً ومَعاقدَ أضواءٍ.

ولا تَظُنَّ أنَّها ـ في مُرورِنا العابِرِ غَيرِ الشَّاعِرِ ـ لا تَهجِسُ عِندَنا بكُلِّ هذِهِ الهاجِسَةِ وتَهْمِسُ لنا بِكُلِّ هذا الْهَمْسِ . . بَلَى، إنَّها تَفْعَلُ، ونحنُ نُصيبُ منها في وُضوحٍ أوْ غَيرِهِ، وعلى مِقْدَارِ ما نُصِيبُ منها، نَقِفُ مُتأمِّلِينَ ما فِيها مِنْ سَرحَاتٍ، مَأخُوذينَ بما قامَتْ عَليهِ مِنْ عُقْدَةٍ، عُقْدَةِ جمَالٍ.

وأنا ما أذْكُرُ يوماً وقفْتُ فِيهِ إزاءَ زَنْبَقَةِ الغَوْرِ ـ هذِهِ الزَّنبَقةِ الشَّارِدَةِ التي كَأَنَّها آعتزَلَتْ في قَصْدٍ، وَطَلَبَتِ النَّجْوَى في رَفّاتِ عَبيرٍ تُسِرُّ بها سِرّاً يَبلُغُ الجَهْرَ. وتُلَملِمُ نَفْسَها في المُنعرَجِ كأنّما لتبلُغَ في وثبةٍ، القِمَّةَ ـ إلاَّ وتَأَوَّدتُ على كَفٍّ أحاسِيسَ تَأَوُّدَ الأُمْلُودِ، لا أَتَحَقَّقُ مِنها إلاَّ أنَّ بَعضَها نَشوةٌ، وبعضَها امتلاءٌ بِشيءٍ كَبيرٍ، بطَوْفٍ زاخِرٍ هُو أكْبرُ من كُلِّ كِياني.

إنَّها جَميلَةٌ دونَ رَيبٍ، ولكِنَّ خَلْبَ جَمالِها، يقومُ في أنْ تَظَلَّ حيثُ هي من المنقطَعِ الذي لمْ يتراخَ بها إلى أسفلَ، ولَمْ يَشُدَّ بها إلى فوقُ. هِيَ أنْ تَظَلَّ كأنَّها مشدودةٌ وكَأنَّها تَتَمَلمَلُ مستشرِفَةً العَلاءَ، وأعني أنْ تَظلَّ في هذا القَلَقِ الذي تُثيرُهُ، وتَرْسمُ خُطوطَهُ في حركةٍ سريعَةٍ.

فهذَا المنقَطَعُ أكْسَبَها عُنصُراً جَديداً، جَعَلَ في جمالِها قَضيَّةً وأشَارَ إلى حادثةٍ، فهو إذنْ جَمَالٌ مُوحٍ يَزْرَعُ الخَواطِرَ في لَفْتَةِ التَّأَمُّلِ.

* * *

وإذا ٱنْتَقَلْتَ بهذا المَفْهوم مِن دائرَةٍ إلى دائرَةٍ، إذا ٱنْتَقَلْتَ بِـهِ إلى دَائِرةِ الْحَيِّ الشَّاعِرِ بوعي الشُّعورِ؛ تَجِدُ أنَّهُ لا يختَلِفُ عَليكَ في قَليلٍ أو كَثيرٍ، تَجِـدُ جَمَالاً يتَفـاوتُ عَنْ جَمالٍ بمـا يَتَضَمَّنُ مِن هذا البَثِّ الخَفِيِّ.

والسَّيِّدَةُ خَديجَةُ، ما كَـانَ أقرَبَهـا وأشْبَهَها بِـزَنْبقَةِ الغَـوْرِ، فيما اجتَمَـعَ لها مِن جَمـالٍ حَفَلَتِ الرِّوايـاتُ[1] بأَخْبـارِهِ، وفيمـا آجتَمَـعَ عَليها من أَرْزاءٍ جَعَلَتْ حَياتَها مَسْرَحـاً يختلِفُ بأَعـاصِيرَ مـا كَانَت إلاَّ لتتَصِل ثَقِيلَةً مُرهِقَةً.

كـان جَمَالُهـا من ذلكَ النَّوعِ الـرَّيَّانِ الأَخَّـاذِ: صَبَاحَـةَ وَجْـهٍ، وَوُضـوحَ قَسَماتٍ، ونَشْـوةَ لَحْظٍ.. يَزيـدُ بِهِ حَـدِيثٌ عَـذْبٌ، وقَلْبٌ مُفعَمٌ بالخَيرِ، وَخُلُقٌ مُجْتَمِعٌ، وعَقْلٌ بَعِيدُ الغَوْرِ، وتَدْبيرٌ آستَوَى على حَزْمٍ وأناة.

فكـانَتْ في مَحَـلِّ الإدْلالِ مِنْ ذَويهـا لِـذلِـكَ كُلِّهِ، وأبُـوهـا «خُويْلِد» ـ وكانَ يَرَى تَنافُسَ سَرَاةِ قُريشٍ وأشْرافِها على طَلبِ يَـدِها ـ يَتَناهَى بِهِ زَهْوٌ، يَبْرُزُ في شَكْلِ شُحٍّ بِهـا حِيناً، وحِيناً بشكلِ مُـوازنَةٍ وتخيُّر.

وآسْتَمَرَّ هَؤُلاءِ على إلْحاحِهـمْ، وآستمَـرَّ هُوَ على تَـرَيُّثِهِ الـذي طَـالَ بِـهِ، ثُمَّ عَقَـدَ أمْـرَهُ وزَفَّهـا إلى «أبي هـالَـة هِنْـدِ بنِ زرارَةَ

(١) راجع كتاب إنسان العُيون في سيرة الأمين المـأمـون المعروف بـ السِّيـرةِ الحلبيةِ لعليِّ بن بُرهانِ الدِّين الحلبيِّ، ج ١، ص: ١٣٧، والاصابة لابنِ حجْر، ج ٨، ص: ٦١ ـ ٦٢.

التَّميميّ»[١] وكـانَ سَيِّداً على جَـاهٍ وغِنًى.. فسَكَنَتْ مِنْـهُ إلى وِدٍّ وارِفٍ، وأنجبَتْ لَهُ هالَة وهِنداً[٢]، فـازْدَادَها تَعَلُّقـاً ومِقَةً. على أنَّهـا لَمْ تَلبَثْ أنْ فُجِعَتْ بِـهِ، وهِيَ أرْجَى ما تكـونُ لَـهُ وأرْجَى مـا تكـونُ مِنـهُ، وآستحالَ في وَمْضَـةٍ مـا كـانَتْ تَمْـلأ بِـهِ عَيْنَيهـا، كَخَيْطِ نَجْمٍ آبْتَلَعَهُ لَيْلٌ لا حَدَّ لعُمقِهِ.

هِيَ بلحظَةٍ ـ أوْ تَكادُ تَكـونُها ـ غَـرَبَتْ في جَوِّهـا حيَاةٌ مُـطمئنَّةٌ مُغتبطَةٌ بكُلِّ ألوانِها، لتَسْتَقبلَ حياةً مُتـولِّهَةً قَلِقَـةً بِكُلِّ ألـوانِها.. فمَـا تَسَلَّبَتْ، وما خَرَجَ بِها فَرْطُ الأسَى، وإن آدَها ما لقِيَتْ مِنهُ.

إنَّهـا مالَتْ تَـدْفِنُ أحزَانَهـا في سُموِّ صَبرٍ وكِبـريَـاءِ احتمـالٍ، وتَمسَحُ ما بِها مِن عُمقِ الجِراحِ بشِفاهِ طُفولَةٍ كَانَتْ تَتَفَتَّحُ في يَديهـا

(١) في الـرِّوايـات خِـلافٌ فيمن تـزوجتـهُ أوّلاً منهمـا، وآعتمـدنـا هُنـا مـا جـاءَ في المـواهِبِ اللُّدنيَّةِ للزّرقـاني وإنْ كان الأكثـرونَ من أصحـابِ السِّيرِ والتـواريخِ على أن الأولَ مِنهما كان عتيقَ بن عائذٍ، ولا مجالَ لبيان وجهِ الترجيح.

(٢) سَمَّتْهُمـا كذلِـكَ بأسمـاءِ الاناثِ على عـادَةِ العـرَبِ من وضعِهِم أسمـاءَ الإنـاثِ للذُّكُور وقايةً مِن الحَسَد. وهالةُ أدرَكَ الإسلامَ وكانت لَهُ صُحْبةٌ. وأمّـا هِندٌ فقـد طـالَتْ صُحبَتُهُ وكـان وصّافـاً. رَوَى عنهُ الحَسَنُ ابنُ أختِـهِ فـاطمـة (ع) حـديثَ وصفِ النبيِّ وهـو أبلَغُ ما رُوِيَ، وقُتِـلَ مـع عليٍّ (ع) يـومَ الجمـل وكـان يفخَـرُ فيقولُ: «أنا أكرَمُ الناس أباً وأمّاً وأخاً وأختاً، أبي رسولُ اللّه لأنَّه زوجُ أمّي وأمّي خـديجةُ وأخي القـاسِمُ وأختي فاطِمـةُ». وعندَ السُّهيلي في الـرَّوض الأُنُف أنَّـهُ مَـاتَ بالـطَّاعون في البَصْـرَةِ وكان قـد مَاتَ في ذلِـكَ اليوم نحـوٌ مِن سبعينَ ألفاً فشغِلَ النَّاسُ بجنائِزِهِم عن جنازَتِهِ فصاحَتْ ناعِيَتُـهُ «واهنداهُ بن هنـداه، واربِيبَ رسـولِ اللّه» فلم تَبْقَ جنازَةٌ إلاّ تُـرِكتْ وآحتُمِلَت جنازتُـهُ عل أطـرافِ الأصابـعِ إعظاماً لربَيبِ رسول اللّه (ص).

نَظْرةً عَذْبَةً. . طُفولَةٍ هِيَ مَدْعُوَّةٌ لِحمايَتِهـا، وهِيَ تُطالِبُهـا بالكَثِيـرِ مِن وُجودِها، تُطالِبُها بالتَّضحيةِ تَوفيراً لهناءَتِها وتَعزيزاً لأحْلامِها.

فما كانَتْ لِتَخنُقَ بأَسَاها الفَاجِعِ، بَسمَـةً صَغيرةً ينبغي لهـا أنْ تَفْتَـرَّ، بَلْ مِن حقِّهـا أنْ تَفتَرَّ مَـزْهُوّةً مُشـرِقَةً. وكَـذلِكَ آنقـطَعَتْ إلى شُؤونِ وَلَدَيْها تَمحَضُهُما الرعَايَةَ أكرَمَها، والحَنَانَ أعذَبَهُ وأنداهُ.

وعلى أنَّها خَلَّتْ بينها وبينَ النَّـاسِ، مُنصرِفَـةً إلى ما هِيَ فِيـهِ مِنْ عِبْءٍ: بَعضُـهُ فَجيعَةُ نَفسٍ وبَعْضُـه صُنعُ طُفـولَةٍ، كـانَ لا يَكُفُّ فِتيانُ قَومِها عَنِ آلْتِماسِها، وكُلٌّ يُريدُها لِنفسِهِ يُغريْهِم بها، غَيْرَ شَبابِها ووَسامَتِها، قُوَّةُ شَخْصِيَّةٍ بَدَأَتْ تُطِلُّ وتَبرُزُ، ثُمَّ وَفْرَةٌ في مَالِهَا.

ولكِنْ كَيْفَ السَّبيـلُ إلى أنْ تُفكِّرَ في زَواجٍ جَـديدٍ، وهِيَ لمّـا تَزَلْ تَذْكُرُ «أَبا هَالَةَ» بِخيرِ ما فِيهِ، ولمَّا تَزَلْ طُفولَةُ وَلَدَيْها تُطالِبُها بكُلِّ آهتمامِها وحَدْبِها.

غَيـرَ أنَّ أَباهـا «خُويلداً» وعَمَّهـا «عَمرو بنَ أسـدٍ» ألحّـا، هُمـا بِدَورِهِما أيضاً، مَعَ المُلحِّينَ الكُثُـرِ، (فأَبـوها وعَمُّهـا شَيْخانِ، هـامةُ اليومِ أو غَدٍ)، وهِيَ في حَاجَةٍ إلى كَنَفٍ تَستَـدْفِئُ بِـهِ وتَفِيءُ مِنهُ إلى ظِلٍّ ظَليلٍ.

وفي غَيـرِ نَشِطَةٍ، وبَعْـدَ لأْيٍ، رَضِيَتْ بأَنْ تُجـرِّبَ حَظَّهـا مِنْ جَديدٍ، فآقْتَرَنَتْ إلى فتى مِن عِلْيَةِ مَخزومٍ وأجـوادِها، هُـوَ «عَتيقُ بنُ عائِذٍ»[١] فـأَعْطَتـهُ مِن ذَاتِ نَفسِها وبِـرِّها مـا يَخلُقُ بِمثلِها، وكـانَ أَنِ

(١) هكذا بالهَمْزِ أو المثناةِ التحتيّةِ والذّالِ المُعجَمَةِ في رِوايةٍ، وفي روايَة: ابنُ عابِدٍ بالباءِ والدّالِ.

آستوْلَدَها طفلَةً دَعَتْها، «هِنْداً»(١) وكانَ أَنِ آهتَبَلَهُ القَدَرُ مِنها في هـذِهِ المرَّةِ أيضاً، كأنَّها باتَتْ والفَجيعَةَ على مَوعِدٍ.

فَلا بِدْعَ أنْ فَارَ في قَلْبِها أتونُ حُزْنٍ، كانَ لَهُ في شُؤونِ عَينيْهـا مَجارِي دَمعٍ لا يرْقَأ.

والسَّيِّدةُ خَديجَةُ إنْ حَزِنَتْ حَقٌّ لهـا أنْ تَحْزَنَ، ومَـرِيرَ الحُـزنِ أيضاً، فالأَسَى يُـوقِظُ الأسَى، والمُصابُ يُحيي المُصـابَ، وأبو هَـالَةَ غَـداةَ اليَوْمِ كـأنَّما لَمْ يفصِـلْ دُونَهُ أمسٌ بَعيـدٌ. . . فـذِكْـراهُ تَخَـطّت حَواجِزَ الذِّكرى لتَحْيَا أيضاً في نُدوبِها الطَّريئَةِ، واخِزَةً وخزَها، طَـائِفَةً بأشواكِها.

وإنهـا لَفي مُعْتَنَقِ اللُّجَّـةِ تَعلُو بهـا وتَهْـوِي، وتَكْثُفُ حَـوْلَهـا وتَرِقُّ، قَضَى وَالِدُهـا، فلَمْ تُمسِكْ مِنْ نَفْسِهـا جَزَعـاً وإشفاقـاً. . لَقَدْ جَرَعَتِ الغُصَّةَ أكْؤساً دِهاقاً، جَرَعَتْها حتَّى الثُّمالَةِ.

فكـانَتْ ـ مِنْ أمرِهـا مَعَ القَـدَرِ وأَمْرِ القَـدَرِ مَعَها ـ صِنْـوَ زَنبَقَـةِ الغَوْرِ، فيما تَبُثُّ مِن إيحاءٍ وتَبْعَثُ مِن شُؤونٍ.

وجمالُها المـرَزَّأُ أو المُخدَّشُ بـالأَرْزاءِ، يَقِفُكَ مِنـهُ عِندَ عُقـدَةِ تأمُّلٍ، تُثِيرُ فِيكَ كَثيراً، وتفتَحُ قَلبَكَ على صُوَرٍ غَنِيَّـةٍ بجمالِهـا، غَنيَّةٍ بآلامِها، وهيَ في هذِهِ وهذِهِ مَشوبَةٌ بأسرارٍ. ومـا آستغْلَقَ ذَلِكَ حتَّى

(١) أدرَكَتِ الاسلامَ وكانَتْ لها صُحْبَةٌ وتزوَّجَتْ صيفي المخزومي وكان لها منه غلامٌ أسمْتهُ محمداً.

على عَقْلِ الجَاهِليَّـةِ، فكانَتْ تُـدعى أثناءَهـا، لمكانِ هـذا الحِسِّ، بـ «الطَّاهِرَة»(١).

نَعَمْ هِيَ صِنْـوُ زَنبَقَـةِ الغَـوْرِ، وليسَ فيمـا آتّفَقَ لهَـا مِنْ مـآسٍ جَعَلتْها بعيدةً عَن دُنيـا النَّاسِ، مُعتـزلَةً في المُنقَـطَعِ البَعيدِ، تَـأْنَسُ إلى وَحدَةٍ قَاسِيَةٍ تُطعِمُها مِن آلامِها. . بَلْ كانَتْ كَمثلِهَـا فيما آجتمَـعَ لهَـا مِن فِكْرٍ بَـاعَدَ بينَهـا وبَينَ الآخَـرِينَ، وتَـزيـدُهُ هـذِهِ الآلامُ حِـدَّةً واستِعَاراً.

فَقَد كانَتْ مِن عَهـدِ الوثَنيَّـةِ ـ كما عَـرفْنا ـ في المَحَـلِّ القَلِقِ، وكـانَتْ مُسْتَنيمَـةً بَـلْ مُنتَسِبـةً إلى لَـونِ مـا يُفَكِّـرُ فِيـهِ ذلِـكَ النَّفَـرُ «الصَّفْـوَةُ». . وتداركَتْهـا هذه الأرزاءُ، حَميَّـةً حَميَّةً، ومِن شَـأنِهـا أنْ تَحْمِلَ النَّفْسَ حملاً على التأمُّلِ، وتَصنَعُها صُنعاً للتَّعرُّفِ.

أَلَمْ تَكُنْ مِن حياتِها التي نَعرِفُ، في معركَةٍ قَاسِيـةٍ مَعَ القَـدَرِ، هذِهِ القُوَّة الخَفيَّة المُخِيفَة.

فما هِيَ هذِهِ القُـوَّةُ؟ وما حقيقَتُهـا؟ وعلى أيِّ نَامـوسٍ تَسرِي وتَسيـرُ؟ ولِمَ تَخْتَلِفُ في مَواقِعِهـا؟ هي بَسْطَةُ كَفٍّ عِنـدَ هذا، وآنقبـاضُ كَفٍّ عِندَ ذاكَ، وهيَ هُنا نَعْمَاءُ دونَ عُرفٍ وَحَدٍّ، وهي هُنا بأساءُ دونَ عُـرفٍ وَحَدٍّ، إلى مُسـاءلاتٍ كَثيرةٍ بيْنَهـا وبين نَفسِها مـا كانَتْ تَجيـرُ جَواباً عَنْهَا.

(١) راجـع السِّيـرةَ الحَلبيَّـة، ج ١، ص: ١٣٧، وهُـو مُستفِيضٌ في غيـرِهـا، كـ: الاستيعابِ لابن عبدِ البرِّ وأسدِ الغَابَةِ لابنِ الأثيرِ.

بَيْدَ أَنَّها تَصْطَفِقُ في ضَميرِها وتَصطَخِبُ، وتَزدَحِمُ في رَأسِهَا آزدحَاماً مُرّاً، يَجعَلُها دَوماً كَمَنْ هُوَ في شَأْنٍ مَعَ نَفسِهِ. . تُعالِجُ ما وَسِعَتْها المُعالجةُ، وتُقَدِّرُ ما أَسعَفَها التَّقدِيرُ، وتُفكِّرُ ما أَطاقَتْ.

لقد كَانَتْ تَرى ظَاهِرَ القَدَرِ، فَتَعْيَا بسِرِّهِ، وتنوءُ بثِقْلِهِ. ومِن أينَ لهَا أنْ تَعرِفَ خَافِيَتَهُ، وأنَّه إنَّما يَذهَبُ بِهَا مَذاهِبَهُ تعليلاً لطبيعَتِها بالتَّرفِيعِ، وإعْداداً لِحقيقَتِها بالصَّقْلِ والتَّهذيبِ، وتفجِيراً لينابيعِ ذاتِها بالزَّلْزلَةِ والتخْدِيدِ.

نَعَمْ مِن أينَ لها أنْ تَعرِفَ سِرَّ قَدَرِهَا،

وأن هَذا الابتلاءَ كانَ سَبيلَها إلى ذلِكَ الاصْطِفَاء.

* * *

إنتهَتْ ـ كما رَأيْنا ـ إلى عُزلَةٍ سَوَّرَت بِهَا نفسها، وكانت عُزلَةً وِجدانيَّةً خالِصَةً، فلمْ تقطَعْ صِلَتَها بالنَّاسِ وبأشياءِ النَّاسِ، ولمْ تَجْفُ الحياةَ[1] وما إلى الحياةِ. . بَلْ ظَلَّتْ قَريبَةً مِن النَّاسِ، قَريبَةً مِن دُنياهُم، آخِذَةً بأساليبِ حياتِهِم، تعملُ كما يعملُونَ، أو لَعلَّها تَعمَلُ وَتُمْعِنُ أكْثَرَ ممَّا يعملُونَ ويُمعنُونَ.

فهي تَشعُرُ بتبِعَةِ مَن دُفِعَتْ إلى الشُّعورِ بِتَبِعَتِهِمْ دَفعاً، تَشعُرُ

(١) وردَ في كتابِ رَوضَةِ الأحبَابِ أنّها كانت تَحوطُ نفسها بأسبابِ الرّفاهيَةِ فترفُلُ في حُللٍ فاخِرَةٍ من منسوجاتِ الهندِ، وتَقطُنُ منزلاً فخماً ذا طَابِقين يسرَحُ فيه عَبيدٌ وإماء، ومُؤثّثاً بالرِّياشِ والمقاعِدِ المُطعَّمَةِ بصُنوفِ العاجِ والأبنوسِ والصَّدَفِ من صِناعَةِ دمشقَ وغيرها من مِراكِزَ الصناعَةِ في تلكَ الأيامِ.

«بأفراخٍ زُغْبِ الحَواصِلِ» يُطالِبُونَهـا بِكُلِّ شَيءٍ، وَمِنْ حَقِّهِم ذَلِـكَ، فلَمْ تَتـرَدَّدْ تَسعى لَهُم، مُثمِّرَةً أَمـوالَهَا على وَجْـهٍ مِن وُجـوهِ التَّثْمِيـرِ، مُنْمِيَـةً ثَرْوَتَهـا على ضَـربٍ مِن ضُـروبِ الإنمـاءِ، مُغتبِـطَةً بـأنَّهـا لـمْ تَضْعُفْ على ثِقْلِ الوَاجِبِ، قَانِعَةً بكَونِها أبدَتْ وتُبدِي بأنَّها أَكْبَـرُ من الكارِثَة.

كانَتْ صِلَتُها بِحيَاةِ النَّاسِ في حُدودِ أَسَالِيبِهِمْ إليهـا، أمَّا فيمـا ورَاءَ ذلِـكَ؛ في أفكـارِهِم عَنْهـا، وتقبُّلِهِم لهـا، وإقبـالِهِم عَلَيْهـا. . فكـانَتْ في عُزلَـةٍ مُغلَقَـةٍ، تَعيشُ بـوجْـدَانٍ آخَـرَ غَـريبٍ، بِـوجـدانٍ يَجوبُ[1] ساحَةَ المجهولِ، يُحاولُ آقتحَامَهُ ويأنَسُ بغَشَيانِهِ، فـإنْ لَمْ يَكُنْ فبآسْتِشْفافِهِ.

كانتْ تَعِيشُ بفِكْرٍ غَيرِ فِكْرِ أولئِكَ الذينَ يُشارِكُونَهـا الحياةَ مِنْ أبنـاءِ قَومِهَـا، ولغَـايـةٍ غَيـرِ غَـايتِهِم، وبـأحْـلامِ أمـانٍ غَيـرِ أحـلامِ أمانِيهِم. . لَقَدْ صَهَـرَهَا الألَمُ فَلَمْ تَعُـدْ تَرضَى بـالحياةِ على أنَّهـا هذا الشَّيءُالسَّاذَجُ، ولَمْ تَعُدْ تَقْنَعُ مِن غِبْطَةِ الحيَاةِ بِهَذا القَدْرِ الذي يَقْنَـعُ بِهِ الآخَرونَ. . . فـآنقَطَعَتْ لِأَحْـلامِهَا وكـانَتْ أَحْلامـاً كَبيرَةً مُجَنَّحَـةً

(١) يظهرُ هذا في قَولِها للنَّبيِّ (ص) لمَّا أخذتْ يدَهُ تَضُمُّها إلى صدرِهـا: «بأبي أنتَ وأمّي، واللهِ مـا أفعلُ هـذا لشيءٍ، ولكِنيّ أرجـو أنْ تكـونَ أنتَ النَّبيُّ الـذي سيُبعثُ. فـإنْ تَكُنْ هو فـأعرفْ حقّي ومنـزلتي وادعُ الإلّهَ الـذي سيبعثُكَ لي». فقال النبيُّ لها: «واللهِ لئنْ كُنْتُ أنا هُو لقد آصطَنَعتِ عنـدي ما لا أضيّعُـهُ أبداً، وإنْ يكُنْ غيـري فإنَّ الآلـه الذي تصنعينَ هـذا لأجلِهِ لا يُضَيِّعُكِ أبـداً». السِّيرةُ الحلبيَّةُ، ج ١، ص: ١٤.

وآستَبَدَّتْ بِهَا وتزَايَدَتْها، فهِيَ تَرُودُهـا في صَحْوَةٍ وغَفـوَةٍ، ومَعَ يَقـظَةٍ وسُباتٍ.

فَكَانَ مِنْ أحلامِ يقـظَتِها مـا جَاءَتْ بِـهِ الرِّوَايـةُ، «مِن أنَّ نِساءَ قُـرَيْشٍ بينما هُنَّ مُجتمعـاتٌ في عِيدٍ لهُنَّ عِنـدَ البيتِ، إذْ تَمثَّلَ لَهُنَّ رَجُلٌ، دَنا فَنادَى بأَعْلَى صَوْتِهِ:

«يـا نِسـاءَ مَكَّـةَ قَـدْ آنَ ظُهـورُ المُنتَـظَرِ، فَمَن مِنكُنَّ ستكَـونُ لَهُ؟ . . .» فكَذَّبْنَهُ ورَمَيْنَهُ بـالحَصَى، وكانَتْ خَـدِيجةُ بَيْنَهُنَّ فلمْ تَـرمِهِ كما فَعَلْنَ، بَلْ لَبِثَتْ في مَكَانِها مُطرِقَةً وَاجِمَةً، لا تَستَطِيعُ حِراكـاً ممَّا آنتَابَهَا مِنْ دقَّاتِ قَلْبٍ»(١).

ألسِّيَرُ وكُتُبُ التَّاريـخِ تُورِدُ هـذِهِ الرِّوايـةَ على نحوٍ مِن التـأكِيدِ بأنَّها حَادِثَةٌ وَقعَتْ بَينَ كُلِّ هذِهِ النِّسوَةِ والمُنادِي الغَريبِ، وقَدْ يكـونُ ذلِكَ حَقّاً لا لَبْسَ فِيهِ، فليسَ ممَّا يُستَبْعَدُ وُقوعُهُ.

وقـد يكُونُ وَاقِـعُ الحادِثَـةِ ليسَ إلاَّ بَينَ السيِّـدةِ خـديجـةَ وبينَ نَفسِها، أيْ صورةٌ مِن أحلامِ يقَظَتِهَا، رَأتْهَا جَليَّةً واضِحَةً، وسَمِعَتهـا أيضاً جَليَّةً واضِحَةً، وتَدَارَكَتْها بِرَجْعِ الحِسِّ، دَقَّاتُ قَلبٍ وقَعَتْ مَليّاً تحتَ مَيَدَانِها الرَّاجِفِ.

نَعَمْ قَدْ يكُونُ واقِعُ هذِهِ الرِّوايةِ واقِعاً نفسِيّاً عندَ السيِّدَةِ الكريمةِ ليسَ في شَيءٍ مِن طَبيعَـةِ الزَّمـانِ والمَكانِ، وجَـلاهُ لناظِرِهَا مشهَـداً

(١) رَاجـع السِّيرَةَ الحَلَبيَّـةَ، ج ١، ص: ١٣٩، وأثبتها ابنُ حِجـرٍ في الاصَـابَةِ عَن المدايني.

ممتدّاً عريضاً ما هِيَ واقِعَةٌ تحتَهُ مِن تيَّارٍ روحيٍّ عميقٍ.

أنا لا أستبعِدُ أنْ يكونَ هذا، كما لا أستبعِدُ أنْ يَكونَ ذاكَ، وإنْ كنْتُ أجِدُني أكثرَ اطمئْناناً إلى أنَّهُ مِن نَوعِ أحلامِ اليَقظةِ عندَها، لأنَّهُ أكثرُ آنْسِجاماً مَعَ ما كانَتْ فِيهِ مِن يقظةِ حِسٍّ رَهيفٍ.

أضِفْ إلى هذا، ما كانَ يُساوِرُ فِئاتٍ كَبِيرَةً مِن الجَاهِليَّةِ يومَذاكَ، مِن هَدْأَةِ آنتِظارٍ شاخِصَةٍ، ولَفْتَةِ تَرقُّبٍ مُشْتَعِلَةٍ، لِفكْرَةِ خَلاصٍ في شَخْصٍ مُخلِّصٍ.

وهذِهِ الفِئَاتُ أحسَّتْها ضرورَةً في عُقْمِ بِناءِ المجتمَعِ، وفي عُقْمِ روحِهِ ونُزوعِ تَدَيُّنِهِ.. وألْقَتْها في رُوعِها، بكَثِيرٍ مِنَ القَطْعِ والتأكِيدِ، طَائِفَةٌ مِن أهْلِ الكِتَابِ، كانَ العَرَبُ يومذَاكَ يُنزِلونَهُم مَنزِلَةَ المعرفَةِ وثِقَتِها.. وهَتَفَ بها نَفَرٌ غيرُ قَليلٍ مِنْ رِجالاتِهِم.. وتَغَنَّاهَا لَفِيفٌ مِن شُعرائِهِم بَينَهُم أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ، حتَّى لَوَقَفَ جُلَّ شِعْرِهِ عَليها.

إذَنْ كانَ في نَزعَةِ العَصْرِ كُلِّهِ هذا التَّرقُّبُ، وعِندَ الطَّليعَةِ لم يَكُنْ تَرَقُّباً فَقط، بَلْ إحْساسٌ بِمخاضٍ.

وطَبِيعيٌّ ـ والسيِّدةُ خديجةُ مَحمولةٌ على مِثْلِ هذِهِ النَّزعةِ العامَّةِ، ومُعطِيةٌ أذُنَها في لذَّةٍ لأغَانيها، وفاتحةٌ قَلبَها في هَوىً لِرُؤاها ـ أنْ تَسكُنَ في عُزلتِها المُفكِّرَةِ إلى أحلامٍ تَعيشُها وتجِدُ نفسها فيها، إلى أحلامٍ مُؤاسِيَةٍ لجراحِها العميقَةِ.

وسَنَرى بعدُ، بأيَّةِ حرارةٍ هي تَضُمُّ يَدَ النبيِّ إلى صَدرِها راجيةً، وليسَ شيئاً إلى الدُّنيا أو شهوتِها «إنْ تَكُنْهُ فاعْرِفْ حقِّي

ومنـزلَتِي، وأدْعُ الآلَهَ الـذي سيَبْعَثُكَ لي». . إنَّهـا بَـدَتْ ظَمْـأى إلى معنًى إلّهيٍّ يَـطيبُ لها إشـراقُـهُ، فيُلقِي بعيـداً بعيـداً، مـا عليهـا مِنْ ظِلالٍ كثيفَةٍ هي لا تَفْتَأُ تَشعُرُ بثقلِها وإرهَاقِها.

مِثْلَ هذا، هي ترى في أحلامِ يَقَـظَتِها، ومِثْلَه تـرى فيما يَـرَى النَّائِمُ. . فَقَد جَاءَتِ الرِّوايةُ بأنَّها رأَتْ «كأنَّ شَمْساً عَظيمـةً تَهبِطُ إلى منزلِها من سماءِ مكَّةَ، فيَغْمُرُ ضَوْؤُهَا ما يُحيطُ المنزلَ مِنْ أماكِنَ قَصِيَّةٍ وبِقَاعٍ. وتَهِبُّ مِن نَومِها مُضطَربَةً، وتُسارعُ الخَطْوَ نَحوَ دَارِ آبنِ عَمِّها «وَرَقَةَ» تَقُصُّ عليهِ ما رَأَتْ بأساريرَ واجِفَةٍ، وَيُنْبِئُها بسِـرِّ الرُّؤيـا بوجـهٍ مُتهَلِّلٍ، وأنَّ تِلكَ الشَّمسَ عـلامةُ مَجيءِ المُنتَـظَر، وحُلُولَها بِمنـزِلِها علامةُ أنَّها تَحْضُنُهُ وتَبِيتُ أدْنى ما تكونُ مِنْهُ».

هِيَ رُؤْيَـا ولكِنْ أسلَمَتْها إلى نَشْـوةٍ، أو قُلْ إلى طُـوفَانٍ روحِيٍّ يُحرِّكُ أقْصَى أُمنياتِها، ويُشَعْشِعُ بالرِّيِّ كاساتِ نَفْسِها العَطْشَى.

هُنَـا. . تَسكُتُ السِّيَرُ وكُتُبُ التَّـارِيخِ، فـلا تُقَـدِّمُ لَنـا السيِّـدَةَ خديجةَ في حقيقةِ ما كـانَتْ تَحلُمُ به، وفي لَـوْنِ ما كـان يُراوِدُهـا مِن أملٍ. وفي غيرِ الحُلم وغيرِ الأملِ، لا تُقدِّمُها في صُوَرٍ مِن أفكارِهـا ومُشتَهيـاتِ رُوحِها الكبيـرَةِ، وبتَعْبيـرٍ أخصَـرَ: في كُـلِّ مـا غَنِيتْ بِـهِ عُزْلَتُها، مِن حياةِ قَلْبٍ، وتَلَهُّفِ وِجْدانٍ، وتَطَلُّعِ فِكْرٍ.

تسكُتُ هُنـا السِّيرُ فـلا تُؤَرِّخُهـا هـذا التَّـاريخَ، أي التَّـاريـخَ الـرُّوحِيَّ، فتحفَظُ ما كـانَ لها مِن تَجَـارِبَ وجْدانِيَّـةٍ، وما كـان لهذِهِ التَّجارِبِ عندَهَا من آرْتسامَاتٍ. . ونَحْنُ حينَ نَفرغُ لهـا اليومَ، فـإنَّما نُحاولُ أنْ نستقْطِرَ نُتَفَ الأَخْبارِ آستقطاراً، وأنْ نَتعَلَّقَ بـإشاراتِهـا أكثَرَ

مِن حُروفِها، وأَنْ نُمعِنَ النَّظَرَ فِيما تُلوِّحُ إليهِ بنَصِيبٍ أكبَرَ جِدّاً ممّا تَلوحُ بِهِ.

وعلى هذِهِ السُّنَّةِ مِن النَّفاذِ المُمْعِنِ في البَاطِنِ، أقولُ: إنَّ عُزلَتها المُتأمِّلَةَ وما اتّفقَ لها فِيهَا، جَعلَتْها تُحِسُّ إحْساساً قَوِيّاً بأنّها كائِنٌ غيرُ عَادِيٍّ. تُحِسُّ بأنَّها مُنتَدَبةٌ لرِعايَةِ رِسَالَةٍ عُلْيا، فِيهَا مِن وَجْدِ قَلْبِ الأرْضِ وسَخَاءِ قَلْبِ السّماءِ، فِيها قَبَسُ حَنِينٍ مِن هُنا على قَبَسِ حَنِين مِن هُناكَ، اتّسقَا في لَحْنٍ كانَ في سَمْعِ الأَبَدِ إذْ كان في سَمْعِ الأزَلِ.

باتَتْ تَطْمَئِنُّ اطْمِئْناناً بَالِغاً إلى أنَّها مُنْتَدَبَةٌ هذا الانتِدابَ، لا سِيَّما وكُلُّ ما صَادَفَ ووقَعَ لها كانَ يُؤكِّدُ عِندَها هذا الاطمئنان.

بَيْدَ أنَّها رِسالَةٌ لا تُحَدَّدُ مِنها ولا تُدرَكُ مِن كُنْهِها، إلَّا أنَّها مُعَزِّيَةٌ تُداوِي كُلومَ قَلبِ الإنسانِ وتمسحُ ما انطَوَى عليهِ مِن مِدَّةٍ وما يجرِي فِيهِ من صَدِيد.

هِيَ لَمْ تَكُنْ تُحَدِّدُ مِنها إلَّا أنَّها شَيءٌ جميلٌ ينشُرُ البَهْجَةَ، فَلَا بِدْعَ - وهي المُشْتَمِلَةُ على كُلومٍ شَتَّى: بَعضُها في القَلبِ وبعضُها في الفِكرِ - أنْ مَالَتْ تَحِنُّ إلى هذِهِ الرِّسالَةِ أيْ إلى مَعنَى الخلاص فِيها.. وما استَمَرَّ حَنِيناً، فَكَانَ يَتَزَايَدُها يوماً بعدَ يومٍ، فَهُوَ وَجْدٌ، وهُوَ هُيامٌ، وهُوَ تَعَلُّقٌ وانجِذابٌ.

وكما لَمْ تَكُن تُحدِّدُ مِنْ أمرِ هذِهِ الرِّسالَةِ، لَمْ تَكُنْ تُحدِّدُ مَن يكُونُ الرَّسولُ.. ولكنَّهُ - وهُوَ لا ينفصِلُ عن الرِّسالةِ كالبُرْءِ لا ينفصِلُ

عن الـدَّواءِ، وبِرَغْبَـةِ البُرْءِ نَحنُ نـرغبُ بِهِ ـ بـاتَ في مكانِ وَجْـدِهـا وهُيامِها وتعلُّقِها.

هِيَ لا تُحدِّدُ مَن هذا الرّسولُ، إلاَّ أنَّهُ بَهِيٌّ بَهَاءَ الرِّسالَةِ، نَدِيٌّ مِثْلَ نَداهَا، جميلٌ مِثْـلَ جَمالِهَـا. . ففتحتْ لَهُ قَلبَهـا كَزهـرَةٍ تستقبِلُ بِـرغبَةِ العَبَقِ نَـدَى الفجرِ، لأَنَّهـا في حَـاجَـةٍ إلى أنْ تَمِيسَ بـالـطِّيبِ وتُهَدْهِدَ بالعَبِيرِ.

* * *

في حَيِّ قُرَيشٍ ـ كَكُلِّ حَيٍّ مُنْكَمِشٍ، يقـعُ الخَبَرُ في أيَّـةِ أُذنٍ ساعَةَ وُقوعِهِ، ولا تَفشو فَاشِيةٌ في جِهَةٍ مِنهُ حتى تغدُوَ في كلِّ مَنازِلِهِ ـ كان النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ ويُوسِعونَ في الحديث:

كَمْ هُـوَ رَائِـعٌ هـذا الفتى؟! وكَمْ هُـو رَائِقٌ حينَ يغْشَى العينَ، وعذبٌ حينَ يَغْشَى السَّمعَ؟!

ثُمَّ يتحدثُونَ ويُوسعونَ في الحديثِ: ولكِنْ ما شَأْنُهُ؟ ما بِهِ؟. . إنَّهُ شابٌّ مِلءُ عينِ الشَّبابِ، ولكنَّهُ عَزوفٌ، يتحـامى كُلَّ مـا للشَّبَابِ مِنْ مَناسِكَ وفُروضٍ: في اللَّهوِ ومـا تَجِدُهُ لاهِيـاً، في المجانَـةِ، وما آسْتَخَفَّتْـهُ مجانَـةٌ، أو لَوْنٌ فيهـا. . ويَمرُّ بِهِم، فيَشْغَلُون عَن حـديثِهِ بتأمُّلِه.

كـان الفتى مُحمَّداً، وكـان الحديثُ المـودُودُ عنـهُ. . وهُـوَ في دَارَةٍ مِثلُهُ في أُخْـرى، حَديثُ حُبٍّ وإعجَـابٍ يَشوبُـهُ تساؤُلٌ حَـائِـرٌ، وآستفهامٌ مُستَغلقٌ لا ينقطِعُ إلى صَواب.

وكـانَتْ تفـاريقُ هـذا الحـديثِ تَتَـوزَّعُ لتجتَمِـعَ عنــدَ السيِّـدَةِ خديجَةَ، وَتَنْتَشِرُ هُنا وهُناكَ لِتجدَ المُلتَقَى في دَارتِها.

والسيِّدَةُ تُصغِي إليها في نَشْوةٍ لا تَدْرِي مَبعَثَهـا، وتَسعَى سعيها إلى الاستـزَادَة منهـا، بِـدَافِـع خَفِيٍّ غـامضٍ لا تُعَلِّلُهُ.. على أنَّ مشاعِرَهَا بَدَأَتْ تَتَّضِحُ شيئاً فشيئاً، وملامِحَ أَحلامِهـا المُبْهَمَةِ، بَـدَأَتْ تَتَدانَى لتَرسُمَ كُلُّها وَجْهاً، كانَ وجْهَ هذا الفَتَى.

ولِمَ لا يكُونُهُ؟.. سَاءَلَتْ نَفسها طَوِيلاً، وآنتَهَتْ إلى آطْمِئنـانٍ وتَأْكِيد.

نَعَمْ، لِمَ لا يَكُونُ هُوَ إيّاه، ذَاكَ الذي تَـرْتَقِبُهُ، وأَجْيـالٌ ضَخمَةٌ مِن ورائِها تَرتَقِبُهُ، في لهفةِ الانتظَارِ.. إنَّهُ مِن هاشمٍ وفيها اليَنبـوعُ، وإنَّهُ ما يتحدَّثُ النَّاسُ عنهُ، وهِي ملامحُ لا تجتمعُ للعَادِيِّين.

وآتَّصَلَ بِها هَمسٌ مِن هُنـا وهَمْسٌ من هُناكَ، بِغـرائِبَ تَقعُ لَـهُ وهي ليسَتْ مِنْ عَالَمِ النَّاسِ، فآزدَادَتْ ثِقَةً بآطْمِئنانِها. وما عَليها أنْ تَطْمَئِنَّ، وفي أعماقِها ما يهتِفُ بِهِ ويُشيرُ إليهِ.

كانَ حُلُماً في الخاطِرِ لا تَتَحَقَّقُ مِنهُ، وأَشْرَعَتْ لَهُ قَلبَها ومَلأَتْ بِهِ عُزْلتها، فكيفَ وقَدْ شَخَصَ لها في حياةٍ هِيَ أَمْلأُ ما تكُونُ حياةً.

لَقَـدْ وَقَفَتْ عِندَهُ بكُـلِّ آمالِهَـا وأَحْلامِهـا، وآنقطعت إليـهِ بكُلِّ هَوَى قَلبِها، المُتوَهِّجِ كأَوَّلِ عهدِهِ بالحياةِ، وكـان آنطَوَى على ظمـأٍ كظِيم...

باتَتِ السيِّدَةُ خديجةُ وأحلامُهَا تُعـانِقُ شخصاً لَمْ يَعُـدْ شَيئاً في

الضَّبَـابِ لا تَكْتَنِهُ مِنـهُ، فَهُوَ غَـامِضٌ غُموضَهـا، مُتـزايـلُ المـلامِـحِ تَزايُلَها، مُتـراخِي القَسَماتِ على تَحَجُّبِ تـراخِيها. . بَـلْ مِلءُ بُـرِدَيْهِ حيـاةٌ، وحياتُـهُ مِلءُ عَينِ الأَحيـاءِ. فَمَرَّتْ في هَـوَى القَلبِ مِنْ حَالٍ إلى حَـالٍ، وأَدْرَكَتْهـا نُقْلَة مِنْ حُبٍّ خيـاليٍّ خَـالِص، بعضُـه فِكـرٌ وبعضُه أمانٍ، إلى حُبٍّ وَجَدَ سَبيلَ تجسُّدِهِ في أبنَاءِ النَّاسِ.

وبينَهُما في شِدّةِ التَّعلُّق، كما بينَ الواقِعِ وما فَوقَهُ. . فالفراشَةُ تَحْلُمُ بِالْمِصْبَاحِ وتُغَنِّيهِ أغانِيَها وتَشتَمِلُ مِنهُ على وجْدٍ، ولكِنَّهـا ـ وقَد دُفعت إليه مِنْ قَريبٍ ـ لا تحولُ عَنهُ ولَـوْ في الاحتِـراقِ الـذي تُحِسُّهُ عَـذْباً ليسَ فيـهِ مَعناهُ، بَـلْ مَعنَى آحتَراقٍ في اللَّذَةِ. . والاحتِـرَاقُ في اللَّـذةِ لَذَّةٌ تضاعفَتْ، أَوْ لَذَّةٌ فَجَّرَتْ كُلَّ قَلبِها.

وخَـديجَـةُ في يـومِهـا، كـانت هـذِهِ الفـراشَـةَ التي وجـدَت مصبـاحَها. . فَـلا بِدْعَ أَنِ آسْتَـوَتْ مِن تَعَلُّقِـهِ على تَلَهُّفٍ، مـا شِئْتَ حَسبتَهُ، في الخَاطِرِ فهُوَ صُوَرٌ لا تبرَحُ، وفي القلْبِ فهُـوَ نَبْضُ الظَّمَأِ على لِسانِ الآلِ، وفي الأُمنِيَةِ فَهُوَ هُوَ الأمنيَة. . .

وتلقَّتْ تلقِّيَ البُشـرَى عَمَّـةَ مُحمّـدٍ تغشى دَارَتَهـا، ولا رَيْبَ لأمرٍ. . . ودَاعَبَها أَملٌ لَشَدَّ ما باتَتْ تَرْتَقِبُه.

فـأوْسَعَتْ لها في مجلِسِهـا، وأَوْسَعَتْ لها في قَلْبِهـا، وأَصْغَتْ إليهَا بآنتباهٍ أَوْشَكَ أَنْ يَثِبَ إلى الخَاطِرِ في مُسْتَقَرِّهِ البعيدِ.

فَعَرَضَتْ عَليها ـ وما أَحَبَّهُ عَرْضاً لَـوْ تَعْرِفُ ـ أَنْ تُـرابِحَ مُحمَّـداً وأَنْ تَعْتَمِـدَهُ في تجارَتِهـا، وكـانَتْ واسِعَـةً، فمـا أَسْـرَعَ مـا أَجابَتْ خَديجةُ يُخامِرُها بِشْرٌ كـادَ يَظْهَـرُ، وما أَسـرَعَ ما آنبَسَـطَتْ في غِبْطَةٍ،

بَاذِلَةً لَهُ حَظّاً أوفَى ونَصِيباً أوفَر(١).

رَاقَ لهـا أَنْ يَكُونَ ذلِـكَ بِـداعِيتَيْنِ: من وِدٍّ حَفِيٍّ، ومِنِ آبتـلاءٍ تَتَكَشَّفُ خلالَهُ مِن طبيعتِهِ ما هُوَ أكثرُ وأَكْثَرُ. . وآتَّسَقَ لها مـا أَرادَتْ، فَقَدِ آتَّصَلَتْ أسْبابُـهُ بأَسبـابِها مِنْ قَـريبٍ، وباتَتْ تَتَلَقَّـاهُ(٢) وليسَ في خَبرٍ تَسْتَخْبِرُهُ، أو على أَكُفِّ حكايَةٍ تَقَعُ إليها.

رَأتْ مِنهُ فَوقَ مـا كانَت تَـظُنُّ، وفوقَ مـا يتحدَّثُ بِـهِ النَّاسُ. . فَهُوَ بَشريَّةٌ جديدَةٌ فيما تعـرِفُ؛ وكُلُّ مـا فيها يَخْلُب، طَـوِيَّةً وبَـادِيَةً، جـوهراً وحُلىً: في القلْبِ ومـا للقَلْبِ مِن مَـواقِـعِ أَهـواءٍ، في أَخْـذِ النَّاسِ وما لهذا الأَخذِ مِن شَمائِل.

ووَرَدَ غُـلامُهـا مَيسـرَةُ ـ وكـان كبيـرَ عُمّـالِهَـا المُؤْتَمَنَ، وكـان صَحِبَـهُ ـ بعد سفـرةٍ بلغتْ بِهِمْ مشارِفَ الشَّـامِ، وأُخـرى بَلَغَتْ بِهِمْ

(١) بالاعتمادِ على المصادرِ الوثِيقَـةِ «تقَعُ على مجلِسِ طعـامٍ ضَمَّ أبا طـالبٍ وأختَهُ عتيقَـةَ ومُحمَّداً، ومـا إنْ قامَ مُحمَّـدٌ إلى بعضِ شأنِـهِ حتى أَخذَا بحـديثِ عَمَلِهِ وترتيبِ أمرِ دُنياهُ، وأفْضَتِ العَمَّةُ برأيٍ أن يعملَ في مالِ خديجةَ كما كان الشَّأنُ يومذَاك بالمرابحة أو بالأجْـرِ، وآسْتَصْوَبَ العَمُّ الـرَّأيَ وأشارَ بِـهِ على آبْنِ أخيهِ، فأجَابَ: «إذا شَاءَتْ خديجةُ أرسلَتْ تَطلُبُني» وأدْرَكت العَمَّةُ لما تعرِفُ مِن عِزَّتِهِ أنَّـهُ لَنْ يَسعى إلى الأمـرِ بنفسِـهِ فجمعت عـزمَهـا وقصـدت في السَّعي إلى بيت خديجة.

(٢) تحفِلُ المصادرُ بذكرِ اللقاءِ الأوَّلِ الذي خَرَجَ مِنه مُحمَّدٌ مُغتبِطاً، فقـدْ بَذَلَت لـه كَثيـراً مِنْ بِشْرِهـا وترحـابها وقَفَـلَ إلى عَمِّهِ فَـرِحاً بـأنَّـهُ يَسْعَى في التَّخفِيفِ من عُسْرِهِ، وفاجَأهُ بقولِهِ: «إبشِرْ بِرِزقٍ عَاجِلٍ سَاقَهُ اللّهُ إليكَ».

مَساحِبَ اليَمَنِ أَوْ قُلْ أذْيالَها(١). . يَقصُّ عليها أحادِيثَ مَفْتونَةً. . مَن يَسْمَعُهُ يقولُ: مفتُونٌ لَمْ يُمسِكْ نَفسَهُ في الفِتْنَةِ، بينمَا هُوَ يُحِسُّ بأنَّهُ مَكفوفٌ لم يَكُنْ لهُ حَظُّ البيانِ.

و«ميسرةُ» لا ينْقَطِعُ، فهُوَ مَشْدودٌ إلى أحَاسِيسَ مُسْتَحْوِذَةٍ: لو أنَّكِ معنا فيما كُنَّا نضربُ هُنَا وهُناكَ مِن البعيدِ البعيدِ، لرَأيتِ النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ، وليسَ لهُمْ مِن إنْسَانِيَّتِهِم إلاَّ حَظُّ الهاجِرَةِ. . ومُحمَّدٌ وحدَهُ كانَ لهُ حَظُّ المظلَّلِ بالسَّحَابَةِ؛ فطبيعتُهُ أفْياءٌ تَتَنفَّسُ فيها مِثلَ غَمامَةٍ بالنَّدَى(٢).

وبَيْنَنا وبينهُ، إنْ نُحْسَبِ الصَّحراءَ فإنَّه الواحَةُ. . ويُوسِّعُ

(١) الأكثرونَ على أنَّ النبيَّ سَافَرَ لهَا مرّتين: واحدَةً إلى الشَّامِ، وأخْرَى إلى سوقِ حبَاشَةٍ بأرضِ اليمنِ، بينَهُ وبين مَكَّةَ ستُّ ليالٍ. . وعندَ البعضِ سافَرَ لها أيضاً إلى جَرَش مِن اليمنِ فتكُونُ سَفراته لها ثَلاثاً، وعِندَ بعضٍ آخر غيرُ ذلكَ. وإذا جُمعَتِ الرِّواياتُ المختلفَةُ لزمَ أنْ يكونَ سافَرَ لها خمسَ سفراتٍ، أربعٌ منها إلى اليمنِ وواحِدَةٌ إلى الشام وَلَيْسَ ما يشهَدُ لهذا.

(٢) في المصادِرِ، ولا أستثني مصدراً، ذكرٌ لخوارِقَ شهَدها ميسرةُ غُلامُ خديجةَ وشهدها الرَّكْبُ ونَقَلها كُلُّها إليها. . وكانَ مِن أهمِّها «السَّحابَةُ التي تُظلِّلُهُ في الهاجرةِ وشِدَّةِ الحَرِّ» وآعتبرَها الرُّواةُ مِن إرهاصَاتِ النُّبُوَّةِ، ولا بِدعَ في أنَّها حَقٌّ وليس مِن كَبيرِ أمرٍ في المنطقِ أنْ تكونَ وَقَعَتْ وأن نَعُدَّهَا كذلِكَ. . ولكنَّني أُحِبُّ أنْ أفهمها فَهْماً مجازيّاً وهُوَ أكبرُ في مقياسِ القيمَةِ، فعشاقُ الخَوارِقِ ليسُوا إلاَّ بُسطاءَ تستهويهِم عُيونُهُم بأكثرَ من عُقولِهِم وقُلوبِهِم، فهم يعيشُونَ عَيشَ الحاسَّةِ وليس عَيْشَ المعنى، وإنهم في مَسَاقِ الضرُورةِ وقلَّما آستشرفُوا ما فَوقَها، نَعَم أنا أفهمُ الروايةَ ذلِكَ الفهم لا سِيمَّا والجُملةُ العربيَّةُ تحفَظُ: «فُلانٌ أظلَّتْهُ السَّحَابَةُ: باتَ في خفضٍ وسَعَةٍ». وهِيَ في المادَّةِ مثلُها في المعنى دُونَ فرقٍ إلاَّ فرقَ الاعتبارِ.

وَيُوَسعُ ليفِيضَ ويَفِيضَ. . وتَنبعِثُ هي آونةً وآوِنَةً، في لَذَّةٍ بينَ دهَشٍ وتأكِيد:

«أَكُلُّ ذلِكَ هُو؟!. .» ثُمَّ لا تَنْتَظِرُ رَدَّهُ، إنَّها تسمَعُ في أعماقِها الجوابَ كأنَّهُ نِداءُ البعيدِ. . . وهُوَ يتساقَطُ إليها مِن نحوٍ وعلى نَحوٍ، كأنَّما لها بِهِ عَهْد.

أتكُونُ عاشِقةً؟ لا تَدْري، فكُلُّ ما تُؤَكِّدُ هو أنَّها تعرِفُ مَلامِحَ هذا النِداءِ، وأنَّ صدَاهُ المضَمَّخَ بالشَّذَى، في جَوِّها، غيرُ غَريب.

امرأةٌ تُخمِّرُ الطِّيبَ

نِداءٌ يُوشوِشُ في أُذنيْها، ولكنّهُ حلوُ الجرْسِ عـذْبُ الرَّنينِ. . تُصغِي إليهِ فتلُفُّها نَشْوَةٌ، وتنصرفُ عنهُ فيعرُوها ضيق.

نِـداءٌ أفـاقَتْ عليـهِ ولا تَـدري مصـدرَهُ، إلاَّ أنَّـهُ مِن أعمـاقٍ بعيدةٍ. . غايةٌ في البُعدِ تَحْسَبُها، وإنْ لم تَكُنْ في غيرِ إطارِ الذَّات.

وشأنُ الأَبعادِ مِنَ الذَّاتِ شأنُ الأبعادِ مِن اللاَّنهايَةِ، ليسَتْ تَثْبُتُ هناك إلاَّ قَدْرَ حَسْوَةِ خاطرٍ وَاهِمٍ. ففي كِيانِ الذَّاتِ وحدةٌ أزليَّةٌ تُحيلُ إليهاْ الأشياءَ، فلا حاضِرَ ولا مُستقبلَ، ولا قُربَ ولا بُعدَ. . بَلْ لحظةٌ أَبَدِيَّةٌ تَطْرَحُ الحُدودَ وهيَ مُشتقَّةٌ مِن كَبِدِ الزَّوالِ، وفي كَونِها، تَذوبُ مُصطلحاتُ عَقْلِنا النِّسْبِيِّ وهيَ تبلوراتُ ظِلالٍ خَادِعَة.

نِداءٌ على أنَّهُ يـأتيها مِن البَعيـدِ ويَهُبُّ عليها مِن المُنْتَـظَرِ، هي الآن تعيشُهُ، وتُنكِرُ على الماضِي أنَّها عاشَتْ غَيرَهُ، وتُنكِـرُ ذلِكَ على المُستقبَلِ بإنكارِها الصارِخِ نفسِه.

إنَّها في ظِلِّ لحـظَةٍ ليسَتْ تُحِسُّ معها بغيـرِ كُلِّيَّتِها، فهيَ أَمْسٌ

وغَـدٌ، وهيَ قَبلُ وبَعْـدُ، إن كانَ لأيٍّ منهـا، في مِثْلِ ذلِـكَ الجَـوِّ، حِسابٌ أو خَيالُ حسابٍ.

لقـد أُصْحِيَتْ فجأةً: على أبي هَـالَةَ، على عتيقِ بنِ عـائـذٍ، على مـا هِي فِيهِ من يَـومِها، وليسَ كُلُّهُ إلاَّ نَبْضَـةَ حَنين آختَلجَتْ في خـاطرِ حُبٍّ عَميقٍ، لا تختلِفُ آختـلافَها إلاَّ حينَ تَميـلُ، فيعلَقُ بهـا عُنصرُ الزَّمنِ الذي يمهَرُها بعلاماتِه البَلْهاء.

نَبْضَـةٌ تَجْتَمِعُ مُسْتَـدِقَّةً لِتَقِفَ عِنْـدَ شَخصٍ، أيْ عِنْدَ عَـلامةٍ، عِنْـدَ اسمٍ زَمَنيّ، وتَنتَشِـرُ مُتَّسِعَــةً لِتُعَـانِقَ رُوحَ الكَــونِ في شُمـولٍ وعُمْق. . أو قُلْ في سَرمدِيَّةٍ يَغَصُّ بآستيعَابِهـا خَلْقُ الكَلِمَةِ، وينقَـطِعُ في آمتدادِها نَفَسُ التَّعبير.

فما تُحِسُّ هي بِهِ اليومَ، مِن نَبْضَةِ حَنينٍ يتوهَّجُ، لَمْ يكُنْ غريباً عنها، وكان لها بِهِ عَهْـدٌ أيُّ عَهدٍ، عُـذوبةً ونَضـارةً. . . وما أَضْحَتْ على جديدٍ فيما تَشعُرُ، بَلْ لتقطَعَ بأنَّها لم تُفْنِ اللَّحظَةَ الأولى بَعْدُ.

فَغَيْـرُها فَقَطْ يـرَى، بِـوَعْيِـهِ الـزَّمَنيِّ، أنَّهـا إزاءَ عـلامـةٍ زمنيَّـةٍ جـديدةٍ، إزاءَ شخصٍ لمْ يَكُنْ لهـا مِن قَبْلُ. . أمَّـا هِي نفسُها، فَقَـدْ كـانَتْ عِنْدَ مـا رَأَيْتَ مِن نبضةِ حَنينٍ لمَّـا تَـزُلْ، وإنْ مـرَّتْ بهـا على ألـوانٍ أنتَ تُبصِرُهـا وتُحصِيها. . كـالشُّعاعِ في مُقلَةِ الشَّمس سـاعَـةَ تُعطِيهِ. مَن يقـولُ إنَّهُ يـراهُ غيرَ بيـاضٍ مُضيءٍ، وإنَّهُ في وعيِ العَينِ غيرُ وحدَةِ نُـورٍ؟، وإنْ كانَ يـرجِعُ في عمليَّـةِ «الطَّيْفِ الشَّمْسِيِّ» إلى ألوانٍ، ويرتَدُّ إلى عَددِ آهتِزازات.

وكانَ فَرقُ ما بينَنا وبينَ السيِّـدَةِ خديجـةَ في هذا: كـالفَرقِ بين مَن ينظُرُ مِن داخِلٍ إلى ما وراءَ، ومَن ينظُرُ مِن خارج إلى ما وراء.

نِـداءٌ هَتَفَ بِهِ كيـانُهـا وَهُـوَ يتَـردَّدُ بَينَ كـلِّ ذَرَّةٍ وذَرَّةٍ، لِيَنْعَقِـدَ تـراجِيعَ تَـراجِيعَ، تـظَلُّ آسَرَ وتـظَلُّ أَغْرى دَاعِيَـةً. . كنغمَةٍ تُـريـدُ أنْ تُحقِّقَ لحنهـا، أو أنْ تَتَحَقَّقَ في لحنٍ، فَدارتْ على طَبَقاتٍ ومنـازِلَ، وفتـرَةُ السُّكـونِ لا تكُـونُ آنقطاعـاً بَلِ آستمـرارٌ لأداءٍ، ساعيـةً تَنْشُدُ أوجَهَا بحرارَةِ آستكمالِ الوُجودِ، بحرارَةِ البَقـاءِ ضِدَّ الفَنـاءِ، بحرارَةِ الحيـاةِ ضِدَّ المَـوْتِ. . . فمَوْتُ النَّغْمَـةِ على الحقيقَةِ، إنَّما هُـوَ في آنقطاعِها، أيْ في أَنْ لا تَتَحَقَّقَ هذا التحقُّق.

والسيِّـدَةُ خديجـةُ تستجيبُ بإرادةٍ ودون إرادَةٍ، إلى وشـوشَـاتِ ذاكَ النِّداءِ، بكلِّيَّتِها، بِكُلِّ خالجةٍ تدورُ وتَترَدَّدُ في حنايَـاهَا. . . صِنـوَ تِلكَ النَّغمَـةِ التي آنسجَمَت آنسجامَهَـا في لحنٍ ما كـانَ لهـا أنْ تَقَـعَ دُونهُ، وإلَّا خسرَتْ سِرَّها سِرَّ الوجود.

مَعَ بُكورٍ صباح ماتِـع ، أو هكذا أحسَّتْ بِـهِ، في مَرِّ نسيمِـهِ، في تَألُّقِ شُروقِهِ، في تَنَاغِي أطيارِهِ، في أصواتِهِ وظِلالِهِ. . آسْتَيْقَظَتْ على لحنِها، وكأنَّهُ تردُّدُ لِسَانٍ في مُجتلياتِ الكَونِ، ما آتّسَعَ الكَون.

على أنّه ما الكَونُ؟ ما لُبانَتُهُ؟ إنْ لم يَكُنْ تَراجِيعَ أصـداءٍ نحنُ نبُثُّها ونُطْلِقُها. . .

نَعَمْ، لقَـد آستيقَظَتْ غَـداةَ هذا البُكـور، على لَحْنِها وَكَـأنَّمـا أُفعِمَ بِـهِ قَلبُ الكَـونِ الكَبيـرِ، فَفَـاضَ على سِيمـائِـهِ بِشْـراً وفَـاضَ نَضَارَةً. . حتى لَحَسِبَتْهُ جديداً في كلِّ شَيءٍ، جَدِيداً في شَمْسِهِ، في لألاءِ شَمْسِهِ، جديداً في أَرْضِهِ في سَمائِهِ. . حتى آتِّكاءَةُ جبالِهِ على صَدْرِ الأُفُقِ، تَراها جديدةً وتُحسُّها لمعنى لَمْ يَكُنْ لها مِنْ قَبْلُ. .

ومرَّت مَولاتُها[١] «نفيسَةُ بنتُ مُنيـة» تَسعَى في بعضِ شَأنِهـا، ومَـرَّ بخديجَـةَ في مُرورِهـا، خاطِـرٌ آتَّصلَ بخـواطِرَ، تتـالتْ سـريعَـةً سريعةً. . ودونَ تلبُّثٍ حَـزَمَتْ أمرَهـا حَزْمَ الجِـدِّ، فإذا هي تَسْتَـوْقِفُ مولاتَها ـ وكانت في محلِّ ثِقَتِها ـ وتدعُـوهَا إلى مجلِسِهـا مِن الأَريكَةِ المُـطعَّمَةِ بـالعاجِ، وإذا هِي تُـطارِحُها حـديثاً ذا تفـاريقَ، آتَّصلَ مِن شَيءٍ في الدارِ إلى شَيءٍ في الأُفُق.

ومولاتُها ـ على أنَّها تُصْغِي حِيناً وتأخُذُ بأَطْرافِ الحديثِ حيناً ـ بَدَتْ عليها مِسْحَةُ آلتماءٍ[٢] في إعـطاءِ أُذُنِها لها، فهي رقيقَةٌ لِتكثُفَ، وهي كثيفَةٌ لتَرِقَّ، آونةً وآونةً، في تدارُكٍ وتتابُـعٍ مع مَسْـرى الحديثِ وكان طَويلا.

فَقَـدْ لَفَّتْها غِـلاَلَةٌ مِن شُـرودِ التقديـرِ. . . ما عَهِـدَتْها مِنْ قبـلُ تخوضُ مِثلَ هذا الخَوْضِ، كمـا لم تَعْهَدْ لهـا هذِهِ النَّـظرَةَ المُنْبَسِطَةَ عندَ الأُفُقِ، العالِقَةَ وكأنَّها بشيءٍ فِيه.

(١) في الرِّواياتِ آختلافٌ أكانَتْ نفيسةُ هذِهِ مَولاتها أَمْ صَديقتها، ويكادُ يَقَعُ الاتفـاقُ بين كُتّابِ التّاريخِ والسِّيَرِ وتراجِم الصَّحَابَةِ والتَّراجم العـامَّةِ على أنَّهـا صديقتهـا فهي أخْتُ يَعلَى بنِ مُنيـة. ووَقـع عنـد الـطّبـري مـا يفيـدُ أنَّهـا مـولاتُهـا ج ٢، ص: ١٩٧. ومِلنا إلى آعتماد المـرجُوحِ لأنَّـه أَدْخَلُ في منهـجِ السبك، مثلمـا آعتمدنا الروايَةَ المرجوحَةَ أيضاً في الفصل السابق فيمن كان الوسيط بين مُحمّدٍ وبينها في العَلاقَةِ التجاريَّة. وأثبتنا هُناكَ أنَّها كانت عمتَهُ. وهو قَولٌ من أقـوالٍ، بعضها أنَّهُ عَمُّهُ أبو طالب وبعضها أنَّهُ نُقِلَ إلى خـديجَة الحـوارُ بينهُ وبين عمـهِ، فبعثت تطلبه، إلى أقوالٍ عديدةٍ.

(٢) الالتماءُ آفتعالٌ من لَمَى ويُفيدُ تَغَيُّرُ اللَّونِ، وأردنَا مِنهُ هُنا تغيُّرَ نَوعِ الإصغاءِ.

إنَّها مُغْتَبِطَةٌ كما لَمْ تعرِفْ منها، مُغْتَبِطَةٌ كـأَمَلٍ مُتفـائلٍ. . ثُمَّ هِيَ لا تنطِقُ بلسَانٍ من ورائِـهِ قَصْدٌ مُعَيَّنٌ، بَـلْ مِن ورائِهِ قَلبٌ تَـزَهْزَهَ كـروْضٍ، قلبٌ كالـذي تعرِفُ مِنـهُ العَـذَارَى. . وَلِلْعَـذَارَى في طَلَّةِ البراعِمِ وعُمْرِ الأُمْلودِ، قلبٌ آنعقـدَ مِن بهجاتٍ فيهـا مِن كلِّ لـونٍ، يدورُ على أنحائِهِ مثلَ كُرَةِ الثَّلجِ، كلَّما مَضَتْ أكثَرَ فأكثَرَ كَبِرَتْ أكثَـرَ فـأكثَرَ، حتى إذا آستقـرَّت آستقرارَهـا، تذوبُ على نفسِهَـا بكُـلِّ مـا آنعقَدَ فيها وتراكَبَ عليها: في دُموعٍ حِيناً أو في غيرها حِيناً، وتَذوبُ أيضاً بمأسَاةٍ في نَهَمٍ سواها إلى الابتراد.

هكـذَا كـانَتْ نفيسَـــةُ في نَجْـوىً بَيْنَهـا وبَيْنَ نفسِهـا: أَتُــرَى خديجَةُ ـ وهي الَّتي ذابَ قَلبُهـا المُنعقِدُ انعقَـادَ الرَّوض في دُمـوعٍ ـ عَادَتْ فَلَمْلَمَتْهُ بأُعْجُوبَةٍ لِيَنْعَقِدَ آنْعِقَادَهُ مرَّةً أُخْـرَى. يُصَفِّقُ لِلْفَرَاشِ، وَيَسفَحُ العَبيرَ بَخُوراً في صَلاةِ البلابِلِ.

وَمَــا أدْرَانـا، أَلَيْسَ في قَلْب الشِّتـاءِ الْعَـابسِ قَلبُ الــرَّبيعِ الباسِمِ. . ولكِن أيَّةُ أُعْجُوبَةٍ هِيَ الَّتي صَنَعَتْهَا!؟

لعلَّهـا رَأَتْ أبا هـالَةَ، وأعنِي لعلَّهـا أحَسَّتْ مِنْ جَديـدٍ بِتَنَفُّسِ شبـابِها الَّـذي كَمَّمَتْهُ يَـدٌ خفِيَّةٌ بقسْـوةٍ. . . نَعَمْ لعلَّها رَأَتْـهُ في غَفْوةٍ كانت آنتباهَـةَ ذِكرَى، أمَـا أكَّدَتْ في حـديثها منـذُ هُنيهَةٍ، أنهـا رَأَتْ هُناكَ عندَ الأُفُقِ البعيدِ أَبا هَـالَةَ، في وَمْضَـةٍ لتنحَسِرَ عَنْ وَمْضَـةٍ رَأَتْ فِيهـا عَتيقَ بنَ عَائـذ، لتَنْحَسِرَ بـدورِها عمّـا هُـوَ أبهى، بَيْـدَ أنَّهـا لَمْ تَتَحَقَّقْهُ كما لَوْ قامَ دونَها جِدارٌ مِن وَهْجٍ أضواء.

تُؤَكِّـدُ هِي أنَّها رَأَتْ ذلِـكَ رَأْيَ الحِسِّ، ولعَلَّهـا الآنَ تُحيلُنـا ـ

نَحْنُ الوَاعينَ وعيَ الزَّمَنِ ـ حينَ لا نَرَى ما رَأَتْ، إلى كَونِنا في غَفْـوةٍ بَليدَةٍ وكابُوسِ نَوْمٍ ثَقيل.

أيَكونُ قَلْبُ الإنسانِ أكبَرَ جَبَروتـاً مِنَ الزَّمَنِ، وهـا هِي بضَرْبَـةٍ تَمْحُـوهُ. . أيكُـونُ أَثْبَتَ مِنَ الكَـوْنِ هـذا الجـامِـدِ، وَأَعْمَقَ حقيقـةً، وهـا هِيَ لا تَرى فِيـهِ إلَّا أنَّه وَجْـهُ مِرآةٍ لحُلمٍ يَـرِفُّ في خَاطِـرِهـا. . أيكونُ أَخْلدَ من المعْرِفَةِ، مِن وَعْيِ مَعْرِفَتِنـا، وها هِيَ تنَهـارُ بِأَضْخَمِ أقدارِها وَقِيَمِها، كضمَّةٍ مِن أَشْباحِ اللَّيلِ في قبضَةِ الفَجْر.

وَأفَـاقَتْ نفيسَةُ مِن نَجْـواهَا على صـوتِ خَـديجَـةَ يهتِفُ بهـا: أَرَأَيْتِ مُحَمَّداً؟ أَعَرَفْتِه؟

نَعَمْ رأيتُهُ هُنا في الدَّارِ، ورأَيْتُهُ خَـارجَها، وعَـرَفْتُ منهُ قَـدْرَ ما يَعْرِفُ النَّاسُ مِنه ويَدورُ في أحاديثِهِم. . مالَتْ خديجَةُ تُعيدُ قَولَها في صَوتٍ خَفيضٍ لا يَخْلو مِن إشفاقٍ: وعَرَفْتُ مِنهُ قَدْرَ ما يعـرفُ النَّاسُ مِنهُ ويدورُ في أحاديثِهم، وماذا يعرِفُ النَّاسُ، هَلْ يعرفـونَ إلَّا معرفَـةَ الحَاسَّةِ التي لا تَعْلَقُ إلا بالظِّلال.

بمـاذا تُلِمُّ العَينُ، نَعَمْ بأيِّ شيءٍ، اللَّهُمَّ إلَّا بخُـطوطٍ واضِحَـةٍ تَتَـواقَعُ كَيْفَمـا اتَّفَقَ على المفارِقِ. . . ومـاذا تلقُطُ الأذُنُ، غيـرَ بَـوادٍ يجوبُ بها صَوتٌ مصنوع.

إنَّها لَمْ تعرفْ إلَّا الثَّـوْبَ، وما أَحْـراهُ أَنْ يَحُولَ خَلقَـاً لا شَيءَ مِنهُ ولا شَيءَ فِيهِ. . أمَّـا حقيقتُهُ ـ وليسَتْ بـالحَاسَّـةِ الجامِـدَةِ تُدرَكُ ـ فليتَ للنَّاسِ غيرَ حَواسِّهم، أو ليْتَ قلوبَهُم في طرِيقِ حواسِّهِم، إذَنْ لوَعَوْا مِنها ما أعِي.

وجَهَرَتْ قليلاً: لَيْتَكِ كُنْتِ تعرفِينَ. . وشَخَصَتْ بِبَصَرِها قليلاً في غَيرِ شيءٍ يُراوِدُ خاطِرَها، ثُمَّ قالَتْ:

كَيف بِكِ إذا نَدَبْتُكِ لأمرٍ؟

أنا! . . تَعنينَ، حَسْبي ـ كعهدِكِ بي ـ أَنْ أَظَلَّ في مَحلِّ الثقَةِ؟

وكانَ أَنْ أرسَلَتْها دَسِيساً إلى مُحمّدٍ تَستَنْبِئُهُ نَبْأَةَ مَيْلِهِ، وما هِيَ حتَّى غَشِيَتْ دَارَهُ، تُعاطِيهِ حديثاً ظَلَّ في التَّرحِيبِ وما هُوَ إلى التَّرحيبِ مِمَّا لَيْسَ يتحرَّكُ بِهِ قَصْدٌ مُعَيَّنٌ، لِتَنْتَقِلَ بِهِ نُقْلَةً صَنَاعاً. . فهي تَذكُرُ شبابَهُ وتذكُرُ حُقوقَ هذا الشَّبابِ عليهِ وما يُطالِبُهُ بِهِ، ويَغُضُّ مُحمَّدٌ على الطَّرْفِ[1] وتَغُضُّ هِيَ على الأَمَلِ بالفَوْزِ، لتُفَاجِئَهُ بقولِها:

ما يمنعُكَ أنْ تَتَزَوَّجَ؟. وحِينَ أشارَ إلى قِلَّةِ المَالِ ٱسْتَدْرَكَتْ:

فَإِنْ أَنْتَ كُفيتَهُ، ودُعِيتَ إلى المَالِ والجَمالِ والكَمَالِ والكفاءَةِ. . وحِينَ ٱنبعَثَ يَسْأَل:

ومَنْ تِلْكَ؟. . أجَابَتْ وقَلْبُها على جَنَاحَيْ تَخوُّفٍ: إنَّها خَديجَةُ.

أَبِنْتَ خُويلِدٍ تَعْنينَ؟. . قَالَها بِتَعَجُّبٍ مَشوبٍ بإعْجَابٍ، ومرَّتْ بِهِ إطْرَاقَةٌ قَطعَها بِقولِهِ:

(١) تَركيبٌ خارجٌ مخرجَ الكناية كأنَّما ليفيدَ جمعَ النَّفس كُلَّها في طَرفٍ غضِيضٍ، وهو شيءٌ غيرُ قولِهم غَضَّ مِنهُ أي ٱستَحى.

وكَيفَ لي بِـذَلِكَ؟ . . فَـدَاخَلَها اطْمِئْنـانٌ لا حَدَّ لَـهُ، وانبَـرَتْ تُجيبُ مَعَهُ في تأكِيدٍ وثِقَةٍ:

ما عَليكَ. . بَلَى أَنَا أفعَلُ. . ويصْمُتُ مُحمَّدٌ صَمتاً كأنَّهُ يَنـطِقُ بالرِّضا، وتَصْمُتُ هِي صَمتاً كأنَّهُ يَنطِقُ بالغِبْطَة.

وتَنقَلِبُ إلى خديجةَ رَاجعـةً، تحمِلُ لهـا السَّعادَةَ بيـدٍ والتَّمَنِّيَ المُخلِصَ بَيـدٍ. . وتُجْزِلُ السيِّـدَةُ كَرَامَتَهـا «لقد كُنْتِ واللّهِ، يـا ابنَـةَ مُنية، مَيمُونَةَ النَّقيبَة».

وما تَلَبَّثتْ خديجةُ، فهي تُرْسِلُهَا كَرَّةً أُخـرى تُعيِّنُ مَوعِـدَ العَقدِ وَتَلْتَمِسُـهُ لزيـارَتِها، فيُجيبُ إلى هـذا وهذا، ويَنْهَمِكَـانِ في معـدَّاتِ العُرْسِ. . . أوِ الفَرْحَـةِ الكُبْرَى في حِسِّهـا المُخْتَلِجِ بِحُلم، طَالَمَـا غَنَّتهُ أغانِيَ الفَراشِ في سمْعِ الزَّهرِ، وهو يَمُدُّ فَوْقَها قِبابَ العَبير.

وكـانَتْ في البَهْجَةِ تَتَلقَّـاهُ كُلَّما هَبَطَ عَليهـا زَائراً، وكـانَتْ في الودَاعِ كلَّ مَرَّةٍ، تَعزِمُ عَليهِ أنْ لا يَسْتانيَ بأُخرَى، فاللَّحظَةُ دونَـهُ دَهْرٌ طَويل.

وَيَنْطَلِقُ مَرَّةً غَادِياً إليها، ويُخامِرُ عَمَّهُ أبا طَالِبِ خَـاطِرٌ لَيْسَ في الرِّيْبَةِ بَلْ في التَّوَقِّي، فيبعَثُ مِنْ وَرائِهِ «نَبْعَةَ» مَوْلاتَهُ لِتَـرْجِعَ إليـهِ بما أفعَمَ قلبَهُ سُرورا.

فَقَدْ شَهِدَتِ «العبَّادَ»[1] في مِحرَابِ الشَّمسِ، طَرْفٌ في طرْفٍ

(١) هو ما يُعرَفُ بآسم عبَّادِ الشَّمس.

ليسَ يسقُطُ، ووَجْهٌ في وجْهٍ لَيسَ يَنْأى، إنَّهُ يمزُجُ بَخُور قَلبِهِ بحبَّةِ شُعاعٍ.

وما عَلَى البَخُور أنْ يُلاقِيَ النُورَ؟ وهُما ما آلْتَقَيَا قَلْباً وقَلْباً، إلا آرْتَسَمَ مِن هَبْوةِ أنفَاسِهِما مَعبدٌ.. «لقد رَأَتْ خَدِيجَة تَميلُ فَتَأخُذُ يَدَ مُحمّدٍ تُسْنِدُ بها قَلْبَهَا، لِتَبُثَّهُ في نَشوَةٍ لَيْسَ فِيها مِن مَعنى الأرضِ:

بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي، واللَّهِ ما أفعَلُ هذا لِشيْءٍ، ولكِنيِّ أرْجو أنْ تَكونَ أنتَ المُنتظَرَ الذي سيُبْعَثُ.. فإنْ تَكُنْهُ فَأَعرِفْ حقّي ومَنزلَتي، وَأَدْعُ الالّهَ الذي سيبعَثُكَ لِي.

ويَرُدُّ مُحمَّدٌ: واللَّهِ لئِنْ كُنْتُهُ، فلقَدِ آصْطَنَعْتِ عِنْدِي ما لا أُضيِّعُهُ أَبَداً، وإنْ يَكُنْهُ غَيرِي فإنَّ الالّه الذي تصنعينَ هذا لأَجْلِهِ لا يُضَيِّعُكِ أَبَدًا»(١).

***

ولَمْ يَفصِلْ كَبيرُ وَقْتٍ، حِينَ أَفَاقَ النَّاسُ على حَفْلٍ زاهرٍ زاهٍ.. أَشَهِدْتَ مَوْكِبَ الرَّبيع في قُبلَةِ الفَجرِ؟ فإنَّهُ صِنْوُه.

«أَقْبَلَ الْقَومُ مِن بَني هاشِمٍ يَومَ الإمْلاَكِ (العَقْدِ)، وفِيهِم كَريمُ فِتْيانِهِم ونَجِيبُ عَشيرَتِهِم، مُحَمَّد بنُ عبدِاللَّه، يَحُفُّ بِهِ عمّاهُ أبو

(١) راجع السِّيرةَ الحلبيَّةَ، ج ١، ص: ١٤٠، وغيرها مِثلَ: السِّمْطِ الثَمين في مَناقِبِ أمهَاتِ المؤمِنينَ للمُحبِّ الطَّبري، ومِنَ المصادِرِ المتأخِّرَة سيرةُ زَيني دَحلان، وكِتاب: شهيراتِ النِّساء في العالم الاسلاميِّ للأميرةِ قدريَّة حُسين، ج ١، ص: ١٨ ـ ٢٠.

طَالب وحمزةُ. فَنَزَلُوا مِن بَنِي عَمِّهِم أَكْرَمَ مَنْزِلٍ وَأَسْنَاهُ، حيثُ قَابَلَهُمْ وآحتَفَى بِهِم عمرو بنُ أَسَدٍ(١) عَمُّ خَدِيجَةَ. وما إنِ آكتَمَلَ عِقْدُ آجتماعِهِمْ حتَّى قَامَ أبو طَالِبٍ إمامُ قُرَيشٍ يومَذاكَ وسيِّدُها، فقال:

«الحمدُ لِلّه الذي جَعَلَنا مِن ذُرِّيَةِ إبراهِيمَ، وزرْعِ إسْمَاعِيلَ، وضِئْضِيءِ مَعَدّ، وعُنْصُرِ مُضَرَ، وجَعَلَنا حَضَنَةَ بيتِهِ وسُوَّاسَ حَرَمِهِ، وجَعَلَ لَنَا بيتاً محجوجاً وحَرَماً آمناً، وجعلَنَا حكَّامَ النَّاسِ . . . ثُمَّ إنَّ آبْنَ أخِي هذا، مُحمّد بن عبدِاللّه، لا يُوزَنُ بِهِ رَجُلٌ إلَّا رَجَحَ بِهِ شَرَفاً ونُبلاً وفَضْلاً وعَقْلاً. وإنْ كانَ في المالِ قِلٌ، فإنَّ المالَ ظِلٌّ زائلٌ، وأمرٌ حَائِلٌ، وعارِيَةٌ مُسترجَعَة.

وهو ـ واللّهِ بَعْدُ ـ لَنَبَأٌ عظيمٌ، وخَطَرٌ جليلٌ، وقد رَغِبَ إليكُم رَغْبَةً في كريمَتِكُم خَدِيجَةَ، وقَدْ بَذَلَ مِن الصَّداقِ ما عاجِلُهُ وآجِلُهُ آثْنَتا عَشْرَةَ أُوقِيةً و نَشّاً(٢).

فَقَامَ على الأثَرِ آبْنُ عَمِّها «وَرَقَة» فقالَ:

«الحمدُ لِلّه الذي جَعَلَنا كما ذَكَرْتَ، وفَضَّلَنا على ما عَدَدْتَ، فنحنُ سَادةُ العَرَبِ وقَادتُها، وأنتُم أهلُ ذلِكَ كلِّهِ، لا يُنْكِرُ العَربُ فَضْلَكُم ولا يَرُدُّ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فخرَكُم وشَرَفَكُم. . فآشهَدوا عليَّ مَعاشِرَ قُرَيْشٍ أنِي قَدْ زَوَّجتُ خديجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِد مِن مُحمّد بنِ

(١) آخْتُلِفَ في المُزوِّجِ لها والصحِيحُ أنَّه عَمُّها المذكُورُ لأنَّ أباها ماتَ قبلَ الفِجَار.

(٢) النَّش عشرون دِرهماً وهو نِصفُ الأوقِيَةِ، ويُروى أنَّ أبا طَالِبٍ أصدقها عشرينَ بَكْرَة.

عبد اللّه». . وكانَ وَرَقَةُ في موقِفِهِ هذا يَنطِقُ بِلِسانِ عمَرو بن أسد عَمّ خديجَةَ فٱلتَفَتَ أبو طَالِبٍ وقالَ:

يا وَرقَةُ أُدْعُ عَمَّها يُشَارِكْكَ العَقْدَ. . فَنَهضَ عَمُّها وقالَ: اشْهَدُوا عَليَّ يا مَعَاشِرَ قُريشٍ أنّي قَدْ أنْكَحْتُ مُحَمَّدَ بنَ عَبد اللّه خديجةَ بِنتَ خُويلد(١) . . .

وكانَ مُحمَّدٌ إزاءَها في أثناءَ العَقْدِ، وما ٱنتَهوْا حتى مالَتْ تَهْمِسُ في أُذُنِهِ أنْ يَنْحَرَ، فطَعِمَ القَومُ ما شَاؤوا»(٢).

* * *

وهَكَذَا ٱستوَى بَعْدَ ٱنتظَارٍ شحيحٍ، لِتِلْكَ النَّغْمَةِ الشَّارِدَةِ أنْ تَنسجِمَ ٱنسِجَامَها في لحنِها العَبْقَرِيِّ، وقَدِ ٱنهمَرَ مِن أُنامِلِ القَدَرِ ٱنهِمارَ جَدائِلِ الشَّمسِ تُوشِّحُ بها وَجْهَ الشُّروق.

هذا اللَّحْنُ الذي سَكَبَ الغَيْبُ فيهِ عُمقَهُ، وعِبارَةَ أسرارِهِ،

(١) يُروى أنّه قال أيضاً: وقَد جَهَّزتُها بأربعمائَةِ مِثقالٍ من الذهبِ؛ ويُروى أنَّ وَرقَةَ الذي قالها وأنهى بها خُطْبَتَهُ.

(٢) كانَ تزويجُ مُحمدٍ بخديجةَ بَعدَ مجيئِه من الشَّامِ بشهرين، وقيلَ بخمسَةَ عَشَرَ يوماً، والأوَّل أصَحُّ، وكان عُمرهُ إذْ ذاكَ خمساً وعشرينَ سنةً على ما هُو الصَّحيحُ الذي عليهِ الجُمهورُ، وفي قولٍ كانَ عُمره خمساً وعشرينَ سنةً وشهرينِ وعشرَةَ أيام . . . أمّا عُمر خديجةَ فٱختُلِفَ فيه والصَّحيحُ أنَّها كانت في الأربعينَ، وقيلَ بنتُ خمسٍ وأربعين، وقيل خمْسٍ وثلاثينَ، وقيل ثلاثينَ، وقيل ثمانٍ وعشرينَ، وقِيلَ خمسٍ وعشرينَ. راجعْ السيرة الحلبية، ج ١، ص: ١٤٠.

وكانَتْ أُذُنُ الحياةِ ظَمْأى، يُثْقِلُها الفَراغُ وتُمعِنُ في نَواحِيها الوَحْشَة.

والسيِّـــدَةُ خَـدِيجَــةُ بــاتَتْ تَتَقلَّبُ تَقَلُّبَ الحِسِّ المُفْعَمِ ، في أرَاجِيحِ هذا اللَّحْنِ. . فَهِيَ تعيشُ أَحْلامَها عَيْشَ القُـطُوفِ الدَّانِيَـةِ، لا عَيْشَ همسِها في خَاطِرَةِ النّواةِ.

لَبِثَتْ مِنْ دَهْـرِها أَمَـداً، وهِيَ مِثلُ شَجـرَةِ الأَوراقِ تَمُدُّ أَحْـلامَ قَلْبِها أفياءً في مِرْآة الشَّمسِ ، فَتَجْتَلِيها اجتَلاءَ النَّشْوَةِ سَاعَةَ تُلَوِّنُها آيَةُ النَّهارِ بمطارِفِ الشُّعاع .

لَبِثَتْ كذلِكَ شَجَرةَ أَفياءٍ، أيْ شَجَرَةَ أَحْلامٍ مُلَوَّنَـةٍ، تَغْنى غِنى قَلبِ الشِّعـرِ بـالأمـاني. . لتَصْحُـوَ وهِي مِثـلُ شجـرة الثّمَـــرِ، تَتبَلْورُ بسماتُ أمانِيها حَبَّاتِ قُلوب.

لَقَـدْ أصَابَتْ مِن الشُّعَــاعِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّونِ، وأَصَـابَتْ مِن الفَيْءِ أكثَرَ مِن الظِلِّ النَّدِيِّ، وهِي لا تَفْتَأُ تمزُجُ بينهُما مَزجَ الحياةِ. . . فإذا الشُّعـاعُ طَعْمٌ وفَـوْحٌ، وإذا الفَيْءُ النَّـدِيُّ طَعْمٌ وفَـوْحٌ. . خَصَـــائصُ مَوصُولَة.

وإذا الحُلمُ الـطائِرُ، يُـرينَا كَيفَ يَنْعَقِـدُ انعقَـادَهُ في وَاقِـعٍ هُـوَ يحلُمُ أيضاً. . . مَعارِجُ مَوْصُولةٌ.

وخَديجَةُ في يومِها. . إنّما عَرَجَتْ إلى مُحمَّـدٍ عُروجَ أَحْـلامِها فآبْترَدَ فيها ظَمَأً. أمّا إلى مُحمدٍ عُـروجَ أحلامِـهِ، فإنَّـهُ يُغادِيهـا بِظَمَـأٍ جَديد. . .

عَرَجَتْ إلى مُحمدٍ عُروجَ أحلامِهـا، فإذا دُنيـاهَا مَحمـولَةٌ على هَـوادِجِ الشَّفَقِ، في مَوْضِـعٍ ، لَحْنُ المساءِ فِيـهِ هُـوَ لَحْنُ النَّهـارِ. .

والشَّفَقُ ـ لَوْ تَعْلَمُ ـ لَوْنُ حَقيقَةٍ مُطلَقَةٍ، فَهُوَ ليسَ اللَّيلَ ولكِنْ فِيهِ كُـلُّ روحِهِ، وهو ليسَ النَّهارَ ولكِنْ فِيهِ كلُّ روحِهِ، آعْتَنَقَا آعْتِنَاقَ سَرمَديَّةٍ، دُونَ مُنْحَدَرِ ضِفَّتِها، بعيداً، يَنبتُ الزمَن.

بـاتَتْ مِن حَيَاةِ قُـرْبِهِ في مُتَعَـاتٍ، تَتراخَى إلى حِسِّهـا شـآبيبَ شآبيبَ، فهِيَ مُغتَبِطَةٌ وهي هانِئَةٌ، وهِي أشْياءُ كثيرةٌ من هذا... إنها سَعِيدَة.

والسَّعادَةُ يَدُ ساحِرٍ، تَمَسُّ اليَبْسَ فَيَحولُ رَوضاً، وتَفْتَـحُ أَغْلَاقَ جُفونِ الصَّخرِ عَن أحداقٍ مُكَحَّلَةٍ بالنُّـورِ... وما وَعَى الصَّخْـرُ على نفسِهِ، إلَّا أنه هذِهِ الجُفونُ، مُغلقَـةٌ لا حَدَّ لإغْـلاقِها، صَفيقَـةٌ لا حَدَّ لصَفاقَتِها.

وقِيلَ ـ وأنا أُصَدِّقُ ـ إن العَرَبيَّ كانَ مُلهَماً يومَ دعَاهَـا حديقَـةً، وأعنِي يومَ تَصوَّرَ فِيها باقَةَ أَحْدَاقٍ، تَنْعكِسُ بآرْتِسَامَاتٍ مما أجَنَّ قلبُ الأرضِ.

***

بِقُربِهِ كانَتْ تَمرُّ بالأَعوامِ أو تَمرُّ بها الأَعوامُ، غَيْرَ مُسْتَثْبِتَةٍ مِنَها إلا أَنَّها أفاوِيقُ بينَ رَشْفَةٍ ورَشْفَةٍ، لِكأسٍ لَمْ تَضَعْهُ مِن يَدِها بَعْدُ، بَلْ مـا كانَ لهَـا أنْ تَضَعَـهُ، فهِيَ مُقبلةٌ عليـهِ إقبـالَ الهِيمِ، بـالجَـارِحَـةِ والخَالِجَةِ، باللُّبِّ والفُؤادِ، وما يتَّصلُ بالفُؤاد.

تُقْبِلُ عليهِ بِعَاطِفَتَيْنِ إحداهُما تُكمِلُ على الأخـرَى، فهُوَ للحُبِّ في عينِها إمرأةٌ، وهُو للحُبِّ في عينِها أُمّـاً، ولا تَسكُنُ عِندَهـا واحِدَةٌ

إلا لِتَتَحـرَّكَ بأُخـرَى. . . وَأَنْجَبَتْ[١] لَهُ، فَهُـوَ لحُبِّها أيضـاً في مَعنًى جَديد.

نَعَمْ هي تَبْذُلُ لَهُ الحُبَّ ألواناً وتفرُشُ أرْضَهُ وسَمـاءَهُ، بيَدَ أنَّهـا ما آعترضَتْهُ بِهِ دُونَ أحلامِهِ، وما أخَذَتْ عليهِ دَرْبَهُ، لكأنَّها تعرِفُ أينَ ينتهِي بِهِ ذلِكَ الدرْبُ. . . بَلْ صَنَعَتْ مِنْ حُبِّهـا مَخارِفَ، تَتَنَضَّـرُ بَينَ يَـديـهِ بمُتْعَـةِ الـطَّريقِ، وهِيَ تُـوغِـلُ في الصُّعُـودِ وَتُمْعِنُ في آتِّجـاهِ البَعيد.

تُحِبُّهُ ولَيْسَ الحُبَّ «النَرْجِسِيَّ»[٢] ـ شَأنَ ما تَعْهَـدُ المرأةُ مِنـهُ ـ وفِيهِ الحُبُّ إشباعٌ لكِبرياءِ الحِسِّ بالوُجودِ، فهو أنـانيَّةٌ حُبْلَى بـذاتها، وهو نَهَمٌ آسِرٌ يَمشِي بمثلِهِ. . وَإنَّمَا أحبَّتْهُ حُبَّ القَـطْرةِ للنَّواةِ، تَسْعَى إليها بلَذَّةِ التضحِيةِ تفجيراً لأسرارِ طَبيعَةٍ مَخْزونَةٍ، في تفجيرِهـا قَصْدٌ إلى تَكبيرِ الوُجودِ.

وكانَ لهَا بهذا الحُبِّ الأَصْفَى، بِهِ وحْدَهُ، أَنْ تَعْرُجَ إلى مُحمدٍ شَيئـاً بَعدَ شَيءٍ عُـروجَ أحـلامِـهِ، فهِيَ تَـرَى مِنْ حَقيقتِـهِ مـا لَـمْ تَكُن تَعْهَدُ، وتُبصِرُ ما تحسبُهُ جديداً غريباً، وتندَفِعُ آندفَاعَها إلى آبنِ عمِّها «ورقَةَ» تُحدِّثُهُ وما تُكَفْكِفُ الحدِيثَ، وَتُطْنِبُ وتَظَلُّ على الإطْنابِ في

(١) وَلَـدَتْ لمحمَّدٍ أبنـاءَهُ كُلَّهُم إلا إبراهيم الـذي كانَ من مـارِيَّةَ القِبْطِيَّة وهُمْ على ترتيبِ السِنِّ: القَاسمُ والـطَّيبُ والطاهِـرُ وأكبرُ بنـاتِهِ رُقيَّـةُ ثم زينبُ ثُمَّ أمُّ كلْثومٍ ففـاطِمـة وكُلهُنَّ أدركن الاسـلامَ وهَـاجَـرْنَ. راجِـع سيـرة ابن هِشـامٍ، ج ١، ص: ٢٠٦، ج ٤، ص: ٣٢١.

(٢) زهـرَةُ النرجِس تَـرمزُ في الأسطورَةِ الإغريقيـة إلى «نَرسيسَ» الـذي كانَ يعشقُ نفسَهُ عِشقاً لا يرى مَعهُ في أيِّ شيءٍ إلا نَفْسَهُ.

محاولَةِ الإفْصاحِ ولكِنَّها لا تُطِيقُهُ، ويَرَى آبنُ عمِّها ذلِكَ مِنها، فيبتَسِمُ لها آبتسامَتَهُ كَمَنْ يعذُرُهَا على أنَّها لم تُفصِحْ، أو بالحَرِيِّ: على أنَّها نَاءَتْ بِهِ وآنقَطَعَت دُونَهُ وإنْ حَاوَلَتْ، وإن جَهِدَتْ فَرْطَ الجُهدِ، وتمتَم كَمَنْ هُوَ في نَجْوى مَعَ نَفْسِهِ:

«قَدْ كُنْتُ عَرفْتُ أنَّهُ كَائِنٌ لهذِهِ الأمَّةِ نَبيٌّ يُنْتَظرُ، هذا زَمانُهُ»، وعَسَاهُ أنْ يَكُونَهُ، وما بي أتَمنّى أنَّهُ هُوَ، هُوَ نفسُهُ، وهذِهِ عَلائِمُه[1].

وخديجَةُ لَمْ تَكُنْ تَطلُبُ مَزيدَ مَعرفَتِهِ فَقَد أحَسَّتْهُ بِحسِّ القلبِ، وما آنفَكَّ يَتَزايَدُهَا هذا الحسُّ مع الأيامِ ويَكْبُرُ على القُرْبِ... وَلكِنْ سَرَّها أنْ تَجِدَ مَنْ يُشارِكُها هذا الاطْمِئْنَانَ، وَيَذْهَبُ فيه مَذْهَبَها.

ونَحْنُ في الحُبِّ والبُغضِ، في العاطِفَةِ والفِكْرِ، نَغْتَبِطُ بالمُوافِقِ لا ليزيدَنَا ثِقَةً بعواطِفِنا وأفْكارِنا، بَلْ لأنَّنا نَأْنَسُ بمَنْ يُشارِكُنا ويفكِّرُ مَعَنا، أوْ ـ وهُوَ أصَحُّ ـ بمَنْ يُشْعِرُنَا بتأكِيدِ الشخصيَّةِ في مظهَرِ الفِكْرِ أوْ في مظهَرِ العاطِفَةِ، أيْ يُشعِرُنا بالتَّفوُّقِ... فأنْتَ قد تُطِيقُ مِنْ مُحدِّثِكَ إنكارَهُ أيَّ شَيءٍ عَليكَ، خَلا مُعطَياتِ الفِكْرِ والعَاطِفَةِ لأنَّهما عُنصُرُ الشَّخصِيَّةِ أو إنْ شِئْتَ فَقُلْ: لأنَّهما أبْلَغُ عناصِرِها وأكبرُ مُقوِّماتِها.

وخديجَةُ آستعذَبَتْ من آبن عَمِّهَا أنْ يشعُرَ معَها هذا الشعُور كُلَّهُ، فكانَتْ لا تَفْتَأُ تَسعَى إليهِ كُلَّما سَقَطَتْ على جَديدٍ أو خُيِّلَ إليها

(١) رَاجِعْ سِيرَة ابنِ هِشام، ج ١، ص: ٢٥٦.

ذَلِكَ، فكثيراً ما كانَتْ تَنْقُلُ إليهِ وتَبُثُّهُ، ما سَبَقَ لها أَنَّها نَقَلَتْهُ إليهِ وبثّتْهُ في أُذُنِه.

ووَرْقَةُ يُعجبُهُ ذلِكَ مِنها، ويُعجبُهُ أكثَرَ وأكْثَرَ، هذا القلبُ عندَها، الشَّاخِصُ دوماً إلى فَوقُ، تَتَكَشَّفُ سِرّاً طالما أعْياهُ أمْرُهُ، وتَنْشُدُ غَايَةً طَالمَا آنقطَعَ بمعارِفِهِ دُونَها، وتَتَمَتَّعُ بيقين أعْوزَهُ بَعْضُه.

لَقَدْ طَفِقَ يَشعُرُ في حَمَاسَتِها بجديدٍ لَم يَكُنْ يُخالِجُهُ، وأفَادَ مِن حَرارَةِ إيمانِها حرارةً.. فهُو ما آنقَطَعَت يَسْتَزِيرُها وما أَبطَأَتْ يَسْتَعْجِلُها، وما كَفْكَفَتْ يستزيدُها. إنَّه باتَ يَحْتَاجُهَا، يَحتَاجُ حَديثَ قلبِها الذي أنَالَهُ ما عَجَزَتْ عَنهُ مَعارِفُهُ.

وفي خَلْوَتِهِ كَثيراً ما مَرَّ بِهِ خَاطِرٌ كانَ يبسِمُ مَعَهُ: هِيَ تَسْتَرْشِدُني في ظَنِّها، وأنَا الذي رَشُدْتُ بها.. أتَرى، ما يُعوِزُ العِطاشَ ليسَ أكثرَ مِنْ قَلْبٍ يُحِبُّ؟..

وآستمرَّت بِهِ وآستَمَرَّ بِهَا، فهُوَ يرتَقِبُ آرتقَابَها ويَعِيشُ في مِثْلِ لَهْفَةِ أملِها، وكانَت أَرَتْهُ إيَّاهُ قريباً حتى لكأنَّهُ تَحْتَ سَدائِلِ ليلَةٍ مَعَ الفَجرِ.. ولكِنَّهُ تَراخَى، وما كانَ له ذلِكَ، أمَا أكَّدَت قُرْبَهُ؟.. وتَرادَفَ في قلبِهِ إلحاحٌ وتَبَاغَمَ في نَفسِهِ نِداءٌ، وما آستَمْسَكَ فهو يهتِفُ:

لجِجْتُ وُكنْتُ في الذِّكْرَى لَجوجاً ... لِهَمٍّ طالَما بَعَثَ النَّشِيجَا
ووَصْفٍ مِنْ خَديجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... لقد طالَ آنْتِظاري يا خَديجَا
بِبَطْنِ المَكَّتَيْنِ على رجَائي ... حديثَكِ، أن أرى مِنهُ خُروجا
بأنَّ محمَّداً سيَسودُ فينا ... ويخصِمُ مَنْ يكونُ له حَجيجا

ويظهرُ في البِلادِ ضَياءُ نورٍ يُقيمُ بِهِ البَرِيَّةَ أنْ تَموجا
فيلْقَى مَنْ يُجانِبُه خَساراً ويَلْقى مَنْ يُجارِيه فُلوجَا
فيا لَيْتي إذا ما كانَ ذاكُم شَهِدْتُ، وكُنْتُ أكثَرَهُم وُلوجَا
ولوجاً في الذي كَرِهَتْ قُريشٌ ولو عَجَّتْ بمكَّتِها عَجيجا
فإن يبْقوْا وأبْقَ، تَكُنْ أُمورٌ يَضِجُّ المُغْتِنونَ لها ضَجيجَا
وان أهْلِكْ، فَكُلُّ فَتًى سيَلْقَى مِنَ الأقْدارِ مُتْلِفَةً خروجا(١)

بهذِهِ المرارَةِ كُلِّها التي تُحِسُّ طَعْمَها ـ وهُوَ العَلقَمُ ـ في نَشيدِهِ وكان كمَا تَرَى، تَفَجَّرَ ضُلوعٍ عَن زَفرةٍ شدَّ مَا احْتَبَسَها... هُوَ يُناجي خديجةَ، يُناجي الأَثَرَ الذي تَرَكتْهُ حَيّاً في نَفسِهِ.

«لقد طَالَ آنتظَارِي يا خَدِيجَا»، هُتافٌ بَذَلَ فِيهِ قَلبَهُ بذْلَ لِسانِ النَّارِ في موقِدِ القَرابينِ، حَسبُهُ مِنهُ أنَّهُ الشُّعْلَةُ في طَريق الآتِي مِنْ هُناكَ... مِن لَدُنِ اللَّهِ.

* * *

وخديجةُ ـ على أنَّها تَحمِيهِ بالجُفونِ، وتفرُشُ طَريقَهُ بنسجٍ مِن مُحبَّكِ أهدابِها، وتَجتَوي ومْضَةَ اللحْظِ التي تَخلُو مِنهُ ـ لا تقِفُ دُونَ رِغابِهِ، فهي تُشيِّعُهُ دَامِعةً باسِمةً، في أُمنِيَةٍ وأُمنِيةٍ وبينَ عَاطِفَةٍ وعَاطِفَةٍ. وكانَ أَخذَ دربَ «حِراء» حَيثُ المزالِقُ الفَاغِرةُ يَتَسلَّقُها تَسَلُّقَ الجَاهِدِ، ويَمُرُّ بينَها مُرُورَ الطَّيفِ المسرِعِ، ويندَفِعُ نَحوَ الغَارِ آندفَاعَ الرَّضِيعِ إلى ثَدْيٍ.. وما هُوَ في التَّشْبِيهِ، لقد كانَ لَهُ ذلِكَ

(١) راجِعْ سِيرَة ابنِ هِشامٍ، ج ١، ص: ٢٠٧.

الغَارُ ثَدياً حَقّاً، أمَا وُلِدَ ولادَةً ثانيةً، وها هُوَ هُنَا يَسْتَنْزِلُ اللُّبَان.

إنْكَمَشَ عَنِ الوجُودِ الفَضَاءِ، لِيَحِيا وُجودَهُ المُفْعَمَ، الذي هُوَ مَهبطُ الأَسرارِ وَمَجْلَى رُوحِ اللّه.

والعُزْلَةُ كانَتْ وحْدَهَا ودَائماً، للأصفِياءِ، المِعرَاجَ إلى الحقيقَةِ الكُبرَى... وحِرَاء ذلِكَ المَغَارُ المُبْهَمُ الذي يَضِيقُ حتَّى لا يَتَّسِعَ لِشَخْصِ المُتأمِّلِ المُتألِّهِ، كانَ ينفرِجُ بِهِ وينفَرِجُ حتى ليأتي الكَوْنُ كُلُّهُ في جَانِبٍ صَغيرٍ مِنه.

إنَّه هُنا بالرُّوحِ يَحيا، وأَنْتَ بِالرُّوحِ مَصْنَعُ مُعجِزاتٍ ومُبدِعُ آياتٍ... وإنَّه بها يَرَى ويسمَعُ، فلم تَعُدِ الحَاسَّةُ تَقِفُ عِندَ الحِسِّ، بَل تَخترِقُ إليهِ سَبِيلَ ضَمِيرِهِ المُحجَّبِ.

ومِنْ هُنا جَاءَتِ الرِّوايَةُ(١)، بأنَّهُ كانَ يَسمَعُ ترنِيمَةَ صَلاةٍ، كأنَّما يتردَّدُ بِها لِسانٌ في كلِّ ما يَقَعُ عليه الطَّرْفُ وما لا يَقَعُ، حتَّى الحَصَى كانَ يَهْمِسُ هَمْسَهُ كما لو أنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ مَعْبَدٌ.. بَلَى، إنّه «مَعْبَدُ الرُّؤْيَةِ» لِذَوِي البَصائِر.

إبتدَأَ هذِهِ العُزلَةَ شَهراً يَقْضِيهِ في الاستِجلاءِ ويَختِمُهُ في البِرِّ(٢)، وتَقْضِيهِ خديجةُ في السَّعي إليهِ بحاجَتِهِ، لِتَزيدَ به وتَزيدَ، حتَّى لأضحَتْ الخَلْوةُ لَهُ جَلْوةً، وحتى لبَاتَ يُحِسُّ في الانْقِطاعِ حَقيقَةَ الاتِّصالِ.

(١) راجِعْ سِيرَة ابنِ هِشامٍ، ج ١، ص: ٢٥٢، وسِواها مِمّا هُو كَثيرٌ كَثير.

(٢) راجع المصدَرَ المذْكُورَ فَقَدْ جاء فِيهِ «كانَ رسُولُ اللّهِ يُجاور شَهرَ رمضانَ مِن كُلِّ سَنَةٍ في حِراء ويُطعِم من جَاءَ مِنَ المسَاكِينِ وهبط عليه» ص: ٢٥٤.

وإنَّه لَفي نَشْوَةِ الاستِجلاءِ التي نَحسبُها غَفْوَةً، كانَتْ يَقَظَتُهُ، يَقظَةَ التَّجلِّي التي نَدعوها نُبوَّةً.

لَحظَةٌ أَبَدِيَّةٌ مُشرِقَةٌ، طَوَيتُها يوماً في صَورَةٍ لَيْسَت إلى الشِّعرِ، وإنَّما هي إلى الإشارَةِ، ولا أجاوِزُ مِقْدارِي فَأقولُ إلى التعبيرِ:

هُناكَ في الصحراءِ ـ حَيثُ صَمَتَتْ مُصغِيةً، جوانِبُ الكَونِ الكَبير
وخَلْجَةُ الحياةِ حَيْثُ هَدَأتْ واعيةً، في لَهْفَةٍ وفي حُبورٍ ـ
تَنَظَّمَتْ خاشِعةً مُكْبِرَةً مَواكِبُ الأجيالِ، تُزجِيها العُصور
وقد جَثَا الوجُودُ يَرْنو شاخصاً لِجَبلٍ يبدو كما يبدو الوَقور
فقد أطلَّ مِن ذُراهُ، هِيبَةُ الأدها رِ، كَالمِشكَاةِ في الأفْقِ المُنِير
أطلَّ مِنْ غَارِ حِراءٍ رَانِياً كما رَنَتْ شمَسٌ على رَأْدِ الظُّهور
مقلِّباً ناظِرَهُ، مُنفِّضاً عَنْ جَفْنِهِ، هباءَةَ الدَّهْرِ الدَّهِير
وهَا.. رُويداً رَاحَ يَخطو هَابطاً وحَولَهُ التَّاريخُ، مَزْهُوّاً طَرير
مُنحَدِراً في هَالَةٍ مُشِعَّةٍ كهَالَةِ البُدورِ في اليومِ المَطير

ولأَتْرُكِ الآنَ الحَديثَ للرِّوايَةِ، فإنَّها أحَبُّ وأغْنى، وأخْصَبُ وأنْدَى:

«أوَّلُ ما بُدِىءَ بِهِ رسَولُ اللَّهِ (ص) مِنَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحَةُ، فكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جَاءَت مِثْلَ فَلَقِ الصبْحِ... ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ وكانَ يَخْلو بَغَارِ حِراء، فيَتحنَّثُ فِيهِ وهُوَ التَعَبُّدُ الليالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قبلَ أن ينزِعَ إلى أهلِهِ، وَيَتَزَوَّدَ لذلِكَ ثُمَّ يرجِعُ إلى خَديجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لمِثلِها، حتى جَاءَهُ الحقُّ وهُوَ في غَارِ حِراءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فَقَال:

إقرَأْ.. قَال: ما أنا بقارِىءٍ.. قَالَ: فَأَخَذَني فَغَطَّني حتى بَلَغَ

مِني الجُهد ثُمَّ أرسَلَني، فقالَ:

إقْرَأْ.. قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ.. قالَ: فأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيةَ حتى بَلَغَ مِني الجُهد ثُمَّ أرسَلَني، فقالَ:

إقْرَأْ.. فَقُلْتُ: ما أنا بِقارِئٍ.. فَأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثةَ ثم أرْسَلَني، فَقالَ:

«إقرأْ باسمِ رَبِّكَ الذي خَلَقْ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِن عَلَقْ، إقْرَأْ ورَبُّكَ الأَكْرَمْ»... فرَجَعَ بِها رسُول اللَّهِ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ على خديجةَ بِنْتِ خُويلِدٍ فقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلوني، فزمَّلوهُ حتى ذهبَ عَنهُ الرَّوْعُ.. فقالَ لخديجَةَ، وأخبَرَها الخَبرَ:

لَقَدْ خشِيْتُ على نَفسِي .. فقالَتْ خَديجَةُ:

كَلَّا واللَّهِ، ما يُخْزِيكَ اللَّهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتكسِبُ المعْدومَ[1]، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نَوائِبِ الحَقِّ.. فانطَلَقَتْ بِهِ خَديجَةُ حتَّى أَتَتْ وَرقَةَ بنَ نَوفلٍ ابنَ عَمِّ خَديجَةَ، وكانَ امْرَأً قَدْ تنصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكان يكتُبُ الكتَابَ العبرانيَّ، وكان شَيخاً كَبيراً قَدْ عَمِيَ، فقالَتْ خَديجَةُ: يا ابنَ عمِّ اسمَعْ مِنِ ابْنِ أخِيكَ: فقالَ: يا ابنَ أخي ماذا تَرى.. فأخبَرَهُ رسُولُ اللَّهِ خَبَرَ ما رَأى، فقال لَهُ وَرَقَةُ:

هذا النَّاموسُ الذي نَزَّل اللَّهُ على موسى[2]، يا لَيْتَنِي فيها

(١) في غيرِ روايةِ البُخاري المُعْدِم، وهُوَ الأصَحُّ.

(٢) في غيرِ روايةِ البُخاريِّ: «الذي نَزَّلَ اللَّهُ على عِيسى» مَرَّةً، ومرَّةً «الذي نَزَّل اللَّهُ ←

جَذعاً، لَيْتَنِي أكونُ حَيّاً إذ يُخرجُكَ قَومُك.. فَقالَ رسولُ اللَّهِ:

أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمثلِ ما جِئْتَ بِهِ إلاَّ عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْني يومُكَ أَنْصُرْكَ نَصراً مؤزَّرا[1].

على مُوسَى وعيسى»، راجِعْ تحقِيقَ ذلِكَ في كِتابِ: عُمدَةِ القَارِي في شَرْحِ صَحيحِ البُخاري للعَينيِّ ج ١، ص: ٤٠ ـ ٥٠.

(١) راجِعْ صَحِيحَ البُخارِي، ج ١، ص: ٣.

يَوَمَ لاقَتِ المَلاك

قُدُّوسٌ.. قُدُّوسٌ.. هَتَفَ وَرَقَةُ، جَامِعاً في هُتافِهِ كُلَّ نَفسِهِ، كَمَنْ بَاتَ يَتَشَهَّى على طَرَف أُمْنِيَّةٍ، لِيَصْحُوَ، وسِرُّ قَلْبِ الأُمْنِيَّةِ بين يَدْيهِ.

لَمْ يُطِقْ إلَّا أنْ يَهتِفَ هذا الهُتَافَ، وخديجَةُ في مَجْلِسٍ مِنهُ كَعادَتِها.. تَقُصُّ هي عَليهِ ما رَأى مُحمَّدٌ، ويَسْتَمِعُ هُوَ آستماعَ البُشرَى ويُصغِي إصغاءَ الظَّفَر.. إنَّه اليومَ سعيدٌ، يستَخِفُّهُ عَبَقٌ ليسَ مِن ضَميرِ الدُّنيَا.. لَيسَ مِثلَه ممَّا تُخَمِّرُ ضُلوعُ الأرضِ، وتَنشَقُّ عنهُ مَواهِبُ التُّرابِ.

لقد رَأى العُنقُودَ: كَيفَ ذَابَ بِهِ الشَّوقُ لِيَحُولَ رَحِيقاً، يُعطِي القَلْبَ نَشْوَةً، سَاعَةَ يَفْتَحُ الرُّوحَ على مَغالِقِ الخُلْدِ.

كانَتْ تَنصرِفُ جُهدَهَا عَنِ التَّفَاصيلِ، شَأْنَ مَن يهتَمُّ بالحادِثِ في الخَبَر، وكانَ يَردُّها جُهْدَهُ إليها، شَأْنَ مَن يَهْتَمُّ بالمعرِفَةِ تعليلاً وآستِنْتاجاً ومقابَلَةً وَمُقَارَنَةً.. إنَّه يُرِيدُها على أنْ تُفضِيَ إليهِ بكُلِّ ما تعرِفُ، باسِطاً لها أُذُنيهِ جميعاً، واحِدَةً لِوَعْيِ عَقلِهِ وواحِدَةً لاطمئنَانِ قلبِهِ، أو لَعَلَّهُ بَسَطَ لها عقلَهُ وقلبَهُ ساعَةَ بَسَطَ لها سمعَهُ.. فما وَقَعَ

إليهِ حَرْفٌ إلاَّ رَأى ما وَرَاءَه، وليسَ رُؤيَةَ الدلالَةِ بَلْ رؤيَةُ التَجَسُّدِ.

وكانَ لهذا الشَّيخِ مُقلَةٌ، كَأَنَّمَا جاءَ بهـا الغَيْبُ على مقدارِهِ، فمـا يطرِفُ لهـا جَفْنٌ على جَفْنٍ، وما ينحسِرُ فيها لَحْظٌ عن لَحْظٍ.. إلاَّ كما يطرفُ دَفْقُ شُعاعٍ على دَفْقِ شُعاعٍ ليسَ تَحتَهما ما يتَـوارَى، وإلاَّ كما ينحسِرُ فَجْرٌ - إذَا آنحسَرَ - عَن شُروقٍ ليسَ في آتجاهِـهِ ما يحتجِبُ. فهي تَرَى ما وراءَ الظواهِرِ كمـا لَوْ لَمْ يكُنْ هـذا الورَاءُ، أو كما لَوْ لَمْ يَكُنْ هذا الورَاءُ إلاَّ رمزاً فَقَطْ يُشيرُ إلى مَسافَةٍ.

وحِينَ تَقاصَرَتِ آبتدَرَها: أَنَائِمَاً يَأْتِيهِ هذا الذي ذَكَـرْتِ أمْ وهُوَ في يقظَةٍ مثل يقظتِنَا؟.. أجَابَتْ:

أَتاهُ الرُّوحُ على نَحوينِ مِن يقَظَةٍ ومَنامٍ، فقد حدَّثني «بأنَّـه مرَّةً جاءَهُ وهُوَ مُغْفٍ في نَمطٍ من ديباجٍ فيهِ كِتَابٌ، فصَنَعَ بِهِ مثلَما نَبَّـأتُكَ مِن صَنيعِـهِ بِهِ في يقـظتِهِ، ثم آنصـرَفَ عَنهُ وَهَبَّ مِن نَـومِهِ وكـأنَّ ما طـالَعَهُ بِـهِ كُتِبَ في قلبِهِ كِتـاباً.. قـالَ: فخـرجْتُ حتى إذا كُنْتُ في وسطٍ من الجبَـلِ، سَمِعتُ صوتـاً مِن السَّماءِ يقـولُ: يا محمَّـدُ أنتَ رسُولُ اللَّهِ وأنا جبريلُ، فرفعتُ رأسِي إلى السَّماءِ أنظُرُ، فإذا هُـوَ في صُورَةِ رَجلٍ صَافٍّ قَدَميهِ في أُفقِ السَّماءِ يقولُ مقالَتَه.

فوقَفتُ أنظرُ إليهِ فما أتقدَّمُ وما أتأخَّرُ، وجعلْتُ أصـرفُ وجهِي عنـهُ في آفَاقِ السَّمـاءِ، فلا أنْـظُرُ في ناحِيـةٍ مِنهَا إلاَّ رأيتُـهُ كـذلِـكَ، فمـا زِلْتُ واقِفـاً مـا يتقـدَّمُ أمَـامي ومـا أرجِـعُ ورائي حتى آنْصَـرَفَ وانصرفْتُ راجِعا.

وقُلتُ لـهُ حينَ غَشِيَ الدَّارَ: يـا أبا القَـاسِمِ أينَ كُنْتَ، فـواللَّهِ لقَدْ بَعثْتُ رُسُلِي في طَلَبِكَ فَحدَّثني بالذي سَمِعْتَ. فقالَ وَرقَةُ:

لئن كُنْتِ صَدَقْتِنِي يا خديجَةُ، لقَدْ جاءَهُ النَّاموسُ الأكْبرُ، فقولي لهُ فليثبُتْ.. ولم يَفْصِلْ إلَّا يسيرٌ مِن وقتٍ حتى قَصَدَ وَرقَةُ محلَّ الكَعْبةِ، ساعياً إلى لُقياهُ ومُشافهتِهِ، فقالَ:

يا آبنَ أخي أخبرني بمَا رأيْتَ وسمِعْتَ، فأخبَرَهُ النبيُّ خَبَرَ ما رَأى فقالَ: والذي نَفسِي بيدِهِ، إنَّكَ لنبيُّ هذِهِ الأمَّةِ.. ولَتُكذَّبنَّهْ ولَتُؤذَيَنَّه ولَتُخْرَجَنَّه ولَتُقاتَلَنَّه، ولئَنْ أنا أدركتُ ذلِكَ اليومَ لأنصرَنَّ اللّهَ نصراً يعَلمُهُ.. ثُمَّ أدنَى رَأسَهُ مِنْهُ فقبَّلَ يافوخَه»[1].

ورقَةُ هذا الذي عاشَ في الرَّيْبِ وتقلَّبَ في الحَيرَةِ، قَرَّ اليومَ عيناً بما خَفَقَ به فُؤادُه زمَناً.. ومالَ وقلبُهُ على شَفتَيهِ، يطبَعُهُ قُبلَةَ تقوى، في جبهةِ هذا المحرَابِ العتِيدِ.

وشَهِدَ النَّاسُ في مرْأى هذِهِ القُبلَةِ.. كَيفَ يَمشِي الهيكَلُ العتيقُ[2] إلى الهيكَلِ الجديدِ، وقُصاراهُ أنْ يَسْكُبَ رُوحَهُ في جَلالِهِ، رعشَةَ قُدُسٍ تبقَى.

وَوَرْقَةُ ـ على ما وصَفْناهُ، فلِمُقلَتِهِ حَظُّ النُّفوذِ إلى الغَيبِ وراءَ أستارِهِ ـ حَدَّدَ هذِهِ النُّبُوَّةَ تحديداً، لكأنما كانَ عِندَ يَنْبُوعِهَا يَرَى ويُبْصِرُ، سَاعَةَ هَتَفَ هُتَافَهُ، وكانَتْ نَبْرَةُ الحَقِّ الأعلى في نَبرَتِهِ «هذا النَّاموسُ الأكْبَرُ الذي نَزّلَ اللّهُ على مُوسَى وعيسَى».. ليقَولَ: في طبيعَةِ هذه النُّبُوَّةِ، خَصائِصُ كُلِّ نُبُوَّةٍ، فَلْن تجيءَ عِلاجاً لداءِ شرٍّ مِنْ

(١) راجِعْ سِيرَة ابنِ هِشامٍ، ج ١، ص: ٢٥٧.

(٢) كان في الجاهِليَّةِ لفضْلِهِ وفضيلَتِهِ يُلقَّبُ بالقَسِّ. راجع عُمْدَةَ القاري، ج ١، ص: ٦٣.

داءٍ، بَلْ أَتَتْ مَعْنَى الدوَاءِ كُلِّهِ، لِتَمْسَحَ مَعْنَى الداءِ كُلِّهِ: في إنسانِيَّةِ الإنسانِ، وإنسانِيَّةِ المُجْتَمَعِ . . وما فَوْقَ هذا وهذا، في أَنْ يَكُونَ لَكَ حَظٌّ مِنْ إنسانِيَّةٍ هِيَ تَفَجُّرٌ من قَلبِ الإنسانِ.

ولم يَنشبْ وَرقَةُ أَنْ أَغْمَضَ عينيهِ في غِبطَةِ النِّعْمَةِ(١)، وبَرْدِ الاطمئْنَانِ، وحَلاوَةِ اليَقينِ . . . لِيَبْقى على لِسانِ النُّبُوَّةِ ذِكْرى طَيِّبةً:

«لا تَنَالوا وَرقَةَ، فإنَّما كانَ لَهُ جَنَّةٌ أو جَنَّتَانِ»(٢) . . .

* * *

وتَعْرُو النَّبِيَّ بَشَرِيَّةٌ، يَرودُهُ في حُدودِهَا قَلَقٌ مِن شَأنِ نَفسِهِ . . . فهُوَ يتخَوَّفُ وهُوَ يَقْلَقُ، وهو يُفَكِّرُ ويُطيلُ التَّفكيرَ، ويتبصَّرُ ويُطيلُ التَّبصُّرَ . ويَلْجأُ إلى قَلْب خَديجَةَ يَتَكَنَّفُهُ، وقَلبُ خَديجَةَ ـ لَوْ تَعلمُ ـ كَوْثَرٌ أَوْ يَنبُوعٌ، فيبُثُّها بَثَّ الواجِفِ الذي يَأْسَى «واللّهِ لَقَد خَشيتُ على نَفْسِي».

وتَمُدُّ خَديجَةُ بَصَرَها تُحَدِّقُ في المَجْهولِ البعيدِ، في لَفتةٍ مِن عَملِ الفِكرِ ولفَتةٍ من عَمَلِ القَلْبِ، لتقولَ في عَزْمَةِ المطمَئِنِّ وقَطْعِ

(١) قالَ ابن مِندَه: آخْتُلِفَ في إسلام وَرقَةَ وإليهِ ذَهَبَ جمعٌ من المحدِّثين.

(٢) أخرجه الحاكِمُ في المُستدرَكِ وقالَ هُوَ صَحيحٌ على شَرْطِ الشيخَينِ، ورَوى الترمذِيُّ أنَّ خديجَةَ سألَتهُ أنَّهُ كان صَدَّقَكَ ولكِنَّهُ مات قَبلَ أن تظهَرَ فقالَ النَّبيُّ «رأيتُهُ في المنامِ وعليهِ ثِيابٌ بِيضٌ، ولو كانَ مِن أهلِ النارِ لكانَ عليهِ لباسٌ غيرُ ذلكَ» وهو غريبٌ، وذكر آبنُ اسحاقَ أنَّه قال: «رأيتُ الفَتى وعليهِ ثيابُ حريرٍ لانَّه أوَّلُ من آمَنَ بي وصدَّقني قبلما أُبعَثُ». راجِعْ في كلِّ هذا كِتابَ: عُمدةِ القاري الذي سَبَقَ التنويهُ بِهِ.

الوَاثِق «كَلَّا واللَّهِ، لا يُخـزِيْكَ اللَّهُ أبداً، إنكَ لَتَصِـلُ الرَّحِمَ وتحمِلُ الكَـلَّ، وتكسِبُ المعـدومَ وتعِينُ على نـوائبِ الحَقِّ» ولتجعَـلَ مِنَ التسَلسُـلِ المَنطِقِيِّ لعَمَـلِ الأَخْـلاقِ وَطَبيعَـةِ الفَضِيلَةِ، سَبِيلَهَـا إلى الإلْزام بِأَنَّ العَدْلَ الإلَهِيَّ لَنْ يَميلَ بِهِ، إلَّا مَيْلَ الاصْطِفَاءِ، ولنْ تَمُـرَّ بِهِ يَدُهُ إلَّا مَرَّ الاخْتيارِ في دُنيَا النَّاس.

البَرْهَنَةُ بالأَخْلاقِ منطِقيّاً، تبتَدِعُها السيِّدَةُ خديجَـةُ في تَاريخِ الذِّهْنِ البَشَرِيِّ، كما وضعتها في هذِهِ الصِّيغَةِ:

أنا إنْسَانٌ حَقّاً، فإذنْ أنا إلَهِيٌّ[1] حَقّاً.. ومـا كانَ اللَّهُ بنَـاقِضٍ غَزْلَه فَمَنْ ذا يَحسَبُ بأنَّ الفنَّانَ يَتنَكَّرُ ويكفُرُ يوماً بـروائِعِه، وأعْني مَن ذا يَحْسَبُ بأنَّ الفنَّانَ يتنَكَّرُ ويكْفُرُ يوماً بذِاتِهِ...

وخديجَةُ على الثِّقةِ تَميلُ في قَـدْرِ المَوقِفِ وزِنَتِـه، إلى الأَخْذِ أيضاً بتَجربَةٍ رُوحيَّةٍ خَالصةٍ، وممارَسَتِها فَتَقولُ:

«أي ابنَ عَمِّ أتستطيعُ أَنْ تُخبرني بصاحِبكَ هذا الـذي يَأتِيـكَ إذا جَـاءَكَ، قالَ نَعَم.. فجَـاءَهُ جِبريـلُ كما كـانَ يصنَعُ، فقـالَ النبيُّ لخـديجَـةَ هـذا جِبـريــلُ أتـاني.. فمــا هي إلَّا أَنْ حَسَـرَتْ وألقَتْ خِمارَهَا، وما هِيَ إلَّا أنْ أدخَلَتْ مُحمَّداً بينَها وبينَ دِرْعِهَا، ثم قـالَتْ هَلْ تَراهُ، قالَ لا، قالَتْ:

يا ابْنَ عَمِّ اثْبُتْ وابْشِرْ، فواللَّهِ إنَّهُ لَمَلَك»[2]....

(١) النِّسبَةُ هُنا لأدنى مُلابَسَةٍ كما لا يخفَى.

(٢) راجِـعْ سِيـرةَ ابنِ هِشـامٍ، ج ١، ص: ٢٥٧، على اختـلافٍ يسيـرٍ في الروايةِ والسَّردِ.

إلى أيِّ شَيْءٍ هَدَفَت السيِّدَةُ خَديجَةُ بهذا كُلِّهِ؟ . . إنَّها تَنْقُلُنا بما فَعَلَتْ، مِن نَحْوٍ في البَرْهَنةِ إلى نحوٍ، فهَذِهِ التجربَةُ التي أجْرتْها تَقُومُ على مَفهومٍ روحِيٍّ نيِّرٍ، مِثلمَا رَأيْتَ في البَرهَنَةِ بالأخْلاقِ وهِيَ تَقومُ على مَفْهومٍ عَقْليٍّ نَيِّر.

فذلِكَ التَّراثِي الرفِيعُ في جَوِّ الأنْبياءِ، لا يَكُونُ إلاَّ حَيثُ تَخلُصُ الرُّوحُ مُنفصِلةً مِن كُلِّ عَلائِقِها الأرضِيَّةِ ومُشْتقَّاتِها، وتَتَجَرَّدُ مُستعْلِيةً تَجرُّدَ صَفائِها الأَنْقَى. . وإنَّ أقلَّ ما يُحيي تِلكَ العَلائِقَ ويُحرِّكُ عَمَلَها ولَوْ في مِقدَارِ خَفْقِ النبضَةِ، يَكفِي لِيَحْتَجِبَ المشهَدُ كُلُّه عَن عَينِ المُشاهِد.

فما احْتَجَبَ جبريلُ وما كانَ لَهُ أنْ يَحْتَجِبَ، وإنّما بَشَرِيَّةُ مُحمَّدٍ الآنَ لم تَعُدْ تَرَى.

وجِبريلُ في مَفْهومِنا، سَيَّالٌ روحيٌّ[١]، أوْ قُلْ بتَعبِيرِ المتصَوِّفَةِ: مَدَدٌ إلَهيٌّ في مَقامٍ من المقاماتِ، ولِكُلٍّ مِنَها إمدادٌ وتَجلٍّ. . فَهُوَ مَعْنىً غَيرُ مُفارِقٍ، وإن تَبَدّى في صُوَرٍ تَنْتزِعُها النَّفْسُ مِنْ حَالاتِها.

إنَّه، أيْ جبريلَ، طاقةُ رُوحٍ في دَرَجةِ آستعلاءٍ هِيَ القِمَّةُ. . ولعلَّ في حديثِ «الشَّعبيِّ» ما يُشيرُ إلى هذا الملحَظِ، وهُوَ «أنَّ رسولَ اللَّهِ نزلَتْ عَليهِ النبوَّةُ، وهُوَ آبنُ أربعينَ سَنَةً. . فقُرِنَ بنُبوَّتِهِ إسرافيلُ ثَلاثَ سنينَ، فكانَ يُعلِّمُهُ الكلمَةَ والشيْءَ ولم يَنزلِ

(١) وقُلْ مِثلَ هذا في كلِّ ملاكٍ هُوَ في مَسْرَى الرُّوحِ يجنَحُ بِهَا إلى فَوْقُ. . . وقُلْ عكسَهُ في كلِّ ما يجنَحُ بمسرَاها إلى تحت.

القُرآنُ. . . فلما مَضَتْ ثَلاثُ سِنينَ، قُرِنَ بنبوتِهِ جِبْريل فَنَـزلَ القُرآنُ على لِسانِهِ عِشرِينَ سَنَةً: عَشْراً بمكَّةَ، وعَشْراً بالمدِينَة»(١). . .

وتَغْمُرُ النبيَّ راحةُ نَفسٍ لا حَدَّ لهَا، فيَقْفُلُ عائِداً إلى «حِراء» مَقرِّ تَألُّهِهِ وتَسامِيهِ. . وينقَطِعُ في هذِهِ المَرّةِ وينقَطِعُ، ويُخامِرُ خَدِيجَةَ ما تَخْشَى.

فَتَنْطَلِقُ حيثُ هُوَ المَهبِطُ الأقْدَسُ، تحمِلُ لَـهُ الزَّادَ والمـاءَ. . وتحمـلُ لَهُ مـا هو أسْمى مِنَ الـزّادِ والماءِ. . تحمـلُ لَهُ قَلْبَهـا، ذلِكَ «الملاكَ الحارِسَ».

ويَتولاَّها رُعبٌ حينَ لم تجدْهُ في الغَارِ، فَهِيَ تَجْرِي هنا وهُناكَ على غَيرِ قَصْدٍ منها بَينَ مَعاطِفِ الجَبلِ ومُنعرَجَاتِهِ. . وتَلْقَى رَجلاً كانَ غَرِيبَ المَلامِحِ عَليها يجُوسُ خِلال المُنحَنَى، فَتزيدُ رُعباً وتَـزيدُ سَعْياً، لِتَجدَ النبيَّ عِندَ حَنِيَّةٍ شَاخصاً ببصَرِهِ في السَّماءِ حَيثُ النُّجومُ السوابحُ، المُمْعِنةُ في الجوِّ البَعيدِ.

فَتَرُدُّهُ إليها. . بَعْدَ لأيٍ مِنَها ولأيٍ مِنهُ، فَيُطالِعُهـا ببصَرِهِ ذَلِـكَ المُحبَّبِ الرغيبِ، وتَنْبَسِطُ إليهِ بَاثَّةً في أُذُنِهِ خَبرَ الرَّجُلِ الذي رَسَمتْ لَهْ سِيماءَهُ، وما استَثْبَتَتْ مِن مَعارِفِـهِ، لتُعْقِبَ بمَخاوِفهـا مِن أنْ يَكُونَ طَائفَ غِيلَةٍ.

(١) راجِعْ عُمدَةَ القاري في حديثِ بـدءِ الوَحْي. . على أنَّ جَمهـرَةَ شُرَّاحِ الحـديثِ يذهبونَ إلى أنَّ النبيَّ بقولِهِ: «لقد خَشيتُ على نفسِي» لم يقصُد بِهِ إلاَّ أنْ يكونَ امتحاناً لمِقدارِ ثِقَةِ خديجةَ بِهِ وآبتلاءً لقلبها، وأمَّا مُقتَضى ظَاهِرِ قـولِهِ فحـاشا أنْ يكُونَ رَاوَدَهُ، وفي هذا التخريجِ ما فِيهِ مِن قِيلٍ وقالٍ.

ولكنَّ النبيَّ يَبسِمُ، لِيفُضِيَ إليها بأنَّها أيضاً حَظِيَتْ بمَلاكِهِ. . فَهِيَ تَغْتَبِطُ. . ثمَّ يُفضي إليها بقولِ المَلاكِ لُهنَيْهةٍ سَبَقَتْ:

«بَشِّرْ خَديجةَ ببيتٍ مِن قَصَبِ (اللؤْلؤِ المُجوَّفِ) لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ»(١) فتَتَوزَّعُها هِزَّةُ طَرَبٍ، وتَمِيدُ بِخَفْقِ فَرْحَةٍ لا تُمسِكُ مِن نَفسِها مَعَهَا.

وَتَأْخُذُ النبيَّ مِثلُ الفُجَاءةِ الباغِتَةِ، وتأْخُذُها مِثلُ الدَّهْشَةِ الذَّاهِلَةِ. . لتَتَحرَّكَ بَعْدَ حِينٍ، يَدُ النَّبيِّ تُشيرُ إلى المُنبَسَطِ الفَضَاءِ.

«يا خَديجةُ هذا جِبريلُ يُقرِئُكِ السَّلامَ مِن رَبِّكِ»(٢)، وفي سُرورِ الدَمْعِ ودَمْعِ السُّرورِ، تُجِيبُ خَاشِعةً:

«للَّهِ السَّلامُ، ومِنهُ السَّلامُ، وعلى جِبريلَ السَّلامُ»(٣). . وتَتَناهَى في نَشْوَةِ أقداسٍ كأنَّها نَشْوَةُ أحلامٍ.

(١ و٢ و٣) رَاجِعْ سِيرَةَ ابنِ هِشامٍ، ج ١، ص: ٢٥٩.

فِي مَرْكَبَةِ الفَجْرِ

«لَتُكْذَبَنَّهْ، ولَتُؤْذَيَنَّه، ولَتُخْرَجَنَّهْ، ولَتُقَاتَلَنَّه». قالَها وَرقَةُ، وكـأنَّهُ كانَ مَعَ غدِ الجَاهِلِيَّةِ على مَوْعِدٍ، يَعلَمُ خَافِيَتَهُ وما يتحرَّكُ في عروقِـهِ مِنْ تَنَكُّرٍ حاقِدٍ، وما يَضْطَرِمُ في صَدْرِهِ مِن غليانٍ مُخيفٍ.

إنبسَطَ غَدُ الجاهِلِيَّةِ أمامَ نَاظرَيْهِ، آنبسَاطَ مَشْهدٍ عَريضٍ مُمتـدٌّ ليسَ يَحْتجِبُ مِنْهُ جَانِبٌ... فهُوَ يَرَى عنتـاً وَيَشْهَدُ قَسْـوَةً، وفي هذا العَنَتِ وهذِهِ القَسْوَةِ يَرَى وَحْشِيَّةً مُحَدَّدَةَ الأَنْيَاب مُشرّعَةَ الأظَافِرِ.

ومُحمّدٌ هذا النبيُّ الأكـرَمُ.. يَراهُ وَرَقَـةُ جَاهـداً في العُبابِ مِن ثَـورَةِ المُجتَمَـعِ الغَـاضِبِ، فيعـرُوهُ ضِيقٌ ويتـوَلَّاه حَنَقٌ، وتتـدارَكُـه حَمَاسَةُ الانتصَارِ، ليمِيلَ مُتـوتِّرَ الأعصـابِ كَمنْ يهِمُّ بِقَبْضَةٍ لا يُبـالِي كَيفَ وقَعَتْ وأنّى وَقَعَتْ، «ولئِنْ أنا أَدْرَكْتُ ذلِكَ اليَـومَ، لأنصرنَّ اللَّه نَصراً مُؤزَّراً يَعلَمُه».

ويدَوِّرُ بناظِرَيْهِ دَورَانَ الذُّعْرِ، ليتَسَارَعَ فِيهِ على فَجْأَةٍ، آطمئْنَانٌ بادي الغبْطَةِ، فَيبتَسِمُ كَمَنْ يُبارِكُ.. إنَّه يَرَى مَحمَّداً ليسَ وحْدَهُ، فها هِيَ خَديجةُ، وهَـا هُوَ أبـو طَالِبٍ، وهـا هو فُـلانٌ وفُلانٌ في نَفَرٍ غيرِ قَليل.

فالْمجتَمَعُ ثارَ على مُحمَّدٍ حَقّـاً، ولكِنْ ها هُـوَ بهذا النَّفَـرِ يَثورُ أيضاً على نَفْسِهِ، وثورَتُهُ على نَفْسِهِ عَلامَةُ تَحَوُّلِهِ، ونَذِيْرٌ بقرْبِ آنهيارِ ما لَهُ مِنْ قَواعِدَ، مَشَتِ الزَّلزَلَـةُ المتنفِّضَةُ فِيهـا ما بينَ حَجـرٍ وحَجرٍ، وما بينَ حَبَّةِ رمَلٍ وحَبَّةِ رَمْلٍ.

ألاَ . . إنني الآنَ أرَى بدايَةَ النِّهايَةِ لدعْوَى الجَاهِلِيَّةِ، المتداعِيَةِ طَللاً على طَللٍ، ورُجَماً دونَها رجمٌ. . ونهايَةَ البدايَةِ لدعْوَى النبيِّ، المتَشَامِخَةِ قمماً فوقَ قِمَمٍ، وعُمُداً دُونَها عُمُدٌ.

وعاوَدَهُ تحدِيقٌ، تنـاهَى بِهِ إلى مِثْـلِ جُمودٍ مُتصلِّبِ القَسَمـاتِ حِينـاً، وإلى مِثْلِ زَهـزَهَةٍ مُتـطلِّقَةِ الأسـارِيرِ حِينـاً. . . فَقَـدْ رأى في البَعِيدِ، مَرْكَبَةَ الفَجْرِ تَمرُّ في الحَلَكِ الدَّامِسِ، فهـو يَلفُّها آوِنَـةً وهي تَفْرِيهِ آونَةً، ثم استمرَّ لها ذلِكَ فأيْقَنَ بالشُّروقِ.

سـرَّهُ وطـابَ لَـهُ، أنْ يَـرَى خَـديجـةَ ـ ولَـهُ مِن دَمِهـا ولَــهُ مِن حَقيقَتِهـا ـ تُـطْعِمُ مَـرْكَبَـةَ الضِّيـاءِ مِنْ قَلْبِهـا، وتَضَـعُ يَـدَهـا في اليَـدِ المـوْضوعَةِ على الزِّمامِ، ثُم تَدْفَعُ ولا تَأْلو، دونَ الغَايَةِ. . . غايـةِ مَن كانَ يعملُ على أن يُلْجِمَ اللَّيلَ.

* * *

«يـا أَيُّها المـدَّثِّر، قُمْ فَـأَنْذِرْ، ورَبَّـكَ فَكَبِّرْ، وثِيـابَكَ فَـطَهِّـرْ، والرُّجْزَ فاهْجُرْ، ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فاصْبِرْ».

على مَوهِنٍ مِنَ اللَّيلِ ـ ومَشْبوبٍ مِن حَياةِ القَلْبِ ـ جَلْجَـلَ في صَـدْرِ مُحَمَّـدٍ صَـوتُ السَّمـاءِ يُهيبُ بِـهِ إلى النُّهـوضِ. . . فـأبنـاءُ التُّرابِ، تراباً ـ استمرُّوا ـ يَحولون، وزيتُ المِشْكَـاةِ التي أوْقَدتْهـا يَدُ

اللَّهِ في طَبيعتِهِم، أَحَالَتْهُ تِلكَ الطبيعَةُ ثُقَالَةً، لا يكونُ لها - مَهْما آضطرَمَتْ - حَظُّ الضَّوءِ، حِينَ لم يَبْقَ لها في العَطاءِ، إلَّا حَظُّ الدُّخان.

كذلِكَ كانَتْ تَبْدو هذِهِ الطبيعَةُ البَشَرِيَّةُ يومَذاكَ، وقَدْ شقَّقَها الزَّفِيرُ اللَّافِحُ، وخدَّدَ فِيها الأخادِيدَ إلى مَسَارِبَ عَميقَةٍ، ودَارَتْ نَواهِشُ الجَفافِ خِلالَها تشْتَفُّ، حتَّى لأَوْشَكَتْ أَنْ تَأْتيَ على نَواةٍ بَذَرَتْها الأُلوهِيَّةُ في طَبيعَةِ الإنسانِ من بيَادِرِها.

هَبَّ مُحمَّدٌ رسَولُ اللَّهِ على نِداءِ النَّذيرِ، لا يُبالي غَضَباً ولا رِضاً، ولا يَأبَهُ أأرادُوه لعُنْفٍ كَالِحٍ أَمِ آنبسَطُوا إليهِ بلِينٍ مُحبَّرٍ، ثُمَّ لا يَحفِلُ، أَبَاتَ مِنهُم على حَسَكٍ مَوْجِدةٍ أَمْ باتَ مِنهُم على مَناعِمِ وِدٍّ من زَغَبِ الأُقْحُوان.

لقدِ آنطلقَ يَمضِي وأَمَامَ ناظِريْهِ أَمْرٌ مِنَ الغَيبِ، وآنتِدابٌ من السماء، «قُمْ فَأَنْذِرْ»، وهُوَ كُلَّما مَضَى أَكْثَرَ فأكْثَرَ، أمْعَنَ أَكْثَرَ فأَكْثَرَ، دونَ هَوادةٍ على ثِقلِ الإعصَارِ وتَجهُّمِ الأُفقِ المُحيط.

في هذا النِّداءِ، كَشَفَ لَهُ الغَيْبُ: مَنْ يَكُونُ، وما هُوَ كائِنٌ لَهُ... وما كانَ لِيَتَنكَّرَ مُحمّدٌ بِحَقيقَتِهِ فيَتَوانَى، وما كانَ ليَتجاهَلَ آلتِزاماتِ رِسالَتِهِ الكُبْرَى، فيُصانِع.

إنَّهُ مَدْعُوٌّ لمُجابَهَةِ مُجتمعٍ بِكُلِّ ما فِيهِ، ومِنْ وراءِ مُجْتَمعِهِ كُلِّ مُجتَمعٍ مَرْكوزٍ عَلى غيرِ قَاعدَةِ إنسانِيَّتِهِ.. فما هَادَنَ وما آسْتَكَانَ، بَلْ بسَطَ في مُقدَّساتِ البَاطِلِ يَدَهُ، وأَعمَلَ فيها مَعاولَ مِن إرادةِ الحَقِّ، وآجتماعِ أعصابِ العَزْمِ الأقْدَس.

وكانَ تَنْزِيلُ هذِهِ الآياتِ مع بَدْءِ الخُطوَةِ، لَترسَمَ لَهُ مَناهِجَ الطَّرِيقِ، وأُسْلوبَ العَمَلِ في أَخْذِ نَفْسِهِ وأَخْذِ النَّاس. .

وجَاءَتْ هذِهِ الآيَاتُ الكَرِيمَةُ، مُتَتالِيَةً تَتالِيَ البُنودِ ومعَقُودَةً عَقْدَ الموادِ، تِبياناً لالتزامَاتِ المُجاهِدِ الكَادِحِ والمناضِلِ العَزُوم.

«يَا أَيُّها المُدَّثِّرْ»[١]. . نِدَاءٌ لمُشْتَمِلٍ بدِثارِ الرّوحِ (حِرَاء) وأثوابِ التأَمُّلِ ـ في عُزْلَةِ آستعلاءٍ، وتَوحُّدِ تَقديسٍ، ورَوَدانِ آرتِشافٍ ـ حِينَ فَاضَ إناؤهُ ليُعطي. . .

«قُمْ فأَنذِرْ». . إهابَةٌ بِهِ إلى العَطاءِ في شَكْلِ الإزالَةِ والتَّهْديمِ، والعَطاءُ في السَّلْبِ كالعَطاءِ في الإيجَابِ، كلاهُما يُكْمِلُ على الآخَرِ سِرَّهُ ويَجْمَعُ لَهُ مَعناهُ، وأعني كِلاهُما طَريقٌ إلى قَلبِ صِنْوِهِ.

والإنْذارُ كَلِمةٌ لَونُها لَونُ الوَعِيدِ، وهُوَ إنما يَتَحَدَّدُ فيما أَنْت مُستهدِفٌ مِن حَواضِنِ الشَّرِّ، ومَثابَاتِ الفَسادِ، ومكامِنِ الخَطَر.

وجَاءَتِ الإِهَابَةُ بكَلِمةِ الأمرِ «قُمْ»، لإفَادَةِ أنَّ واجِبَ المُصْلِحِ لَيْسَ التَّنويْرَ فَقَطْ بَلْ جَمعُ العَزْمِ كُلِّهُ، في جِهازِ العَملِ كُلِّهِ. . فَشَأْنُهُ أبَداً شَأْنُ الحَارِسِ السَّاهِرِ، هُوَ مُتفتِّح العَزْمِ تَفَتُّحَ العَينِ لا يُغمِضُ مِنها كما لا يَخْفِضُ فِيهِ.

(١) المُفَسرونَ على أنَّ المُدَّثِّر هُنا المتلَفِّع بالأغطية في الفراش، وذهبُوا هذا المذهَب آعتماداً منهم على ما وَرَدَ في حديثِ بدءِ الوحي من أنَّه عادَ إلى أهلِهِ فقالَ: «دَثِّروني» مرَّةً ومرَّة «زَمِّلوني».

و«قُمْ» هذِهِ مِن بَعْدُ، تَعْنِي: كُنْ حَرَكَةً مُتهيِّئَةً، وعَزْمَةً جميعَةً، ونهضَةً مُشتعِلةً لَيسَ مِن شَأْنِها إلاَّ أَنْ تُقْدِمَ.

«ورَبَّكَ فَكَبِّرْ»[1].. نُقْلَةٌ إلى شَكْلِ العَطاءِ في الإيجَابِ، فأنتَ إذْ تَهدِمُ، ينبغِي أَنْ تبنيَ في مُصاحَبَةٍ لا تنقَطِعُ أو تَتوقَّفُ ولا تَتوانى أو تَتأخَّرُ. فالحَيَاةُ إنما تَدورُ حَرَكَتُها بالمَوتِ لأنَّها بِهِ تُنشِىءُ، وما إِخَالُ الموتَ في يَدِ الحيَاة إلاَّ كالْمِمْحَاةِ في أَيْدِينا حِينَ نَخُطُّ، ليسَتْ هي وسِيلةً لنَقِفَ، بَلْ هِيَ وسَيلَةٌ لنَسْتَمِرَّ، ولَيستْ هِيَ عُنوانَ إزالةٍ بَلْ هِيَ عُنوانُ إحسانٍ.

والقُرآنُ بِجُملَةٍ مُوجَزَةٍ، أبلَغَ ما يكونُ الإيجازُ، جَمَعَ للمُصلِحِ الحقِّ كلَّ غَايَةِ سَعْيِهِ.

فالرَّبُّ رَمزُ الخَيْرِ ومَوئلُ الجَمالِ ويَنبوعُ الحَقِّ ومَفيضُ القِيمَةِ، فكلُّ شَيءٍ إذَنْ دونَهُ، وهو إنَّما بِهِ يَتقوَّمُ.

وتأتَّى القرآنُ بصِيغَةِ القَصْرِ، تأسِيساً لهذا كُلِّهِ، في الفِكْرِ والقَلبِ وما فَوقَ الفِكْرِ وما دُونَ القلْبِ... والمُصْلِحُ بهذِهِ الثِّقةِ وبِحُكمِ هذِهِ الغَايةِ، يعرِفُ كَيفَ يُنشىءُ دُونَ حِساب، ويُبدِعُ دُونَ مِثالٍ؛ أيْ إبداعاً عبقرياً، أو بِمِثالٍ مُطلَقٍ هُوَ الرَّبُّ جَلَّ شَأْنُهُ، الذي تَتَكَسَّرُ ـ حينَ تَخلُو مِن معناهُ ـ القِيمُ، وَتَنْزِفُ دِمَاؤُها، وَتَعْرى من رُوحها.

(١) التكبيرُ في الآيةِ بمعنَى التَّعظيمِ والتفضِيلِ، لا بمعنى مُرادِفِ التَّهليلِ كما توهَّم المُفسرونَ جَرْياً مَعَ المُتَبادرِ الشَّائِعِ.

وَأَنْتَ بهـذا الاعتَقادِ، أي اللّهُ أكبـرُ، قُوَّةٌ لا تُـدحَرُ. ثمَّ كُـلُّ ثَابتٍ تَراهُ، تُحسُّ بِهِ في يَديكَ يَتَخَلْخَل.

والمُصْلِحُ الأكمـلُ حِينَ يَندَفِـعُ آندفـاعَهُ، بهـذِهِ الثِّقَـةِ في كـلِّ كِبريائِها، غَاسِلاً أثوابَ حقيقتِهِ لِتأتِيَ إشراقَ الطُّهر كُلِّهِ، لا تَقومُ دونَـهُ عَقَبةٌ، وإنَّما تَتَداعَى كالكَثِيبِ المَهِيلِ بينَ يَديْهِ العقباتُ.

«وثيابَكَ فَطَهِّر»[١]. . اسْبِكْ نَفْسَكَ بما آنطَوى فِيها مِن نَزعَاتٍ سَبيكَـةَ الشُّعـاعِ . . وآسْكُبْهـا سَكْبَ قَلْبِ الكَـواكِبِ، شَـآبيبَ ضَـوْءٍ ومَنابعَ نُورٍ . .

«والرُّجْزَ فاهْجُرْ»[٢]. . نَافِياً مِنْ جَوِّ نَفْسِكَ كُلَّ نزوَةٍ، وأيَّ دَرَنٍ يَمرُّ في آفاقِها مَرَّ الكَلَفِ، ويتمادَى على وَجْهِ سمـائِها تَمـادِيَ السُّفْعَةِ في مُقْلَةِ الشَّمسِ.

ومُصلِحٌ يَصنَعُ نَفسَهُ هذا الصُّنعَ ويشتَقُّ أعصابَهُ مِن تلكَ الثِّقَةِ، لَحَريٌّ بأنْ لا تَقطَعَ المخـاوِفُ مُنَّتَـهُ، وطاقَـةَ نفسِهِ على الاحتَمـالِ،

(١) ما نَزَعَ إليـهِ المُفسرُّونَ من أنَّ المعنى هُوَ تقصير الثِّيـابِ، وكان العَـرَبُ يومـذاكَ يطولونها خُيلاءَ، أو تَنْظيفها، بعيـدٌ كلَّ البُعـدِ عن روحِ القُرآن. . وإنمـا المعني بالثيابِ فيما نَرى، النَّفسُ أو الحقيقة. . . والعَرَبُ كانوا يقولونَ للَّهِ أثـوابُ فُلان يُـريدون نفسَـهُ. ووقعَ بهـذا المعنى عند ليلى الأخيليَّـةِ. راجعْ أَسَـاسَ البلاغَـةِ للزَّمخشري. . . ووقَعَ عند عنترةَ في قولِهِ:

وشَكَكْتُ بـالرُّمـحِ الأصَمِّ ثيابَـهُ   لَيْسَ الكريمُ على القَنا بمحَـرَّمِ

واسترَوح المُبرِّدُ في الكامِلِ لهذا المعنى فَراجِعْهُ.

(١) المفسِّرونَ أو أكثرهُم يذهبونَ في الرُّجزِ إلى أنه الوثَنْ، أمـا نحنُ فنَميلُ إلى أنَّـهُ هنا يعني مُطلَقَ الدَّنسِ والدَّرَنِ من أيِّ نوعٍ ولونٍ، وجاءَتْ بهذا المعنى اللغَةُ.

وقدرَةَ عَزْمَتِهِ على المَضاءِ والإمْعانِ. . .

«ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر»[١]. ثُمَّ لحَريٌّ بِهِ، أنْ لا يستعظِمَ المصائِبَ والخُطوبَ، بَلْ هُوَ كلّما عَظُمَتِ آستَقَلَّها في عَيْنيهِ. . فَلوجْهِ فِكْرَتِهِ يجهَدُ، وفي ذَاتِ اللَّهِ يعمَلُ، فَشَأْنُهُ دوماً «ولِرَبِّكَ فاصْبِرْ».

* * *

بهذِهِ الآياتِ التي رَسَمَتْ لَهْ مِنهَجَ العملِ الكَبيرِ ـ الكَبيرِ في آلامِهِ، في تجلُّدِهِ، في جِلادِهِ ـ أخذَهُ الغَيْبُ أوَّلَ ما أخَذَهُ. . فوَطَّنَ النَّفْسَ في لَذَّةٍ على المَكْروهِ، وبَاشَرَهُ مُباشَرَةَ الرَّغيبِ إليهِ.

وخديجَةُ هذا الملاكُ الحارِسُ، حَشَدَتْ لَهُ وحَشَدَتْ. . حَشَدَتْ لَهُ في التَّضْحِيَةِ راحَتَها ومَالَها، وما فَوقَ الرَّاحَةِ والمَالِ حَشَدَتْ لَهُ الحياةَ حينَ بَذلَتْها بَذْلَ السَّخاءِ، ونَزَلَتْ عنها نُزولَ السَّماحِ.

(٢) المُفسِّرونَ جميعاً على أن تَمْنُنْ في الآيةِ من المِنةِ بكسرِ الميم بمعنى اليَدِ والعَطِيَّة، وهُوَ لا يتَّفِقُ أبداً مع تَسلسُلِ النَّظمِ القُرآني، وعندنا أنُّها من المُنّةِ بضمِّ الميم بمعنى الصلبِ والقوَّةِ، والعَرَبُ يقولون مَنَّ عليهِ يَمُنُّ تَفَضَّلَ ويقولون مَنَّهُ بمعنى أضعَفَهُ وقطع صُلبَهُ، والمعنى القُرآنيُّ على هذا لا تَمْنُنْ نَفسَكَ أيْ لا تُضْعِفْها بما سَوفَ يعترضُك من المخاوفِ. . . ومنهُ قَول القَائلِ:

كأنْ لم يَغْنَ يوماً في رخاء إذا ما المَرْءُ مَنّتْهُ المَنونُ

وعلى هذا نَرى كيفَ يَتَّسِقُ النَّظمُ القُرآنيُّ وينسجمُ معناهُ آنسجاماً بدعاً في علاقةٍ طَبيعيَّة.

فَقَرَّ النبيُّ عَيناً، ولا بِدْعَ، فَقَدْ تَفقَّد فيها جَناحَيْهِ، فكانَتْهُما لَهُ - كما يُريدُ - مَنشورَيِ القوادمِ موفورَيِ الخَوافِي.

وبَاتَ مُحمَّدٌ كما بَاتَ النَّسْرُ المُسَاوِرُ على نشَزٍ، وأمعَنَ مُشتداً في رِحلَةٍ إلى الأُفقِ البعيدِ. . لا يُبالي أمرَّ بِهِ إعصارٌ، أمِ آستدارَتْ به عَاصِفَةٌ.

لقدِ آنصَبَّتْ في جَناحَيْ مُحمَّدٍ قوّةٌ معجِزَةٌ كما لا تَعرِفُ، أو كما لا يَعْرِفُ الخيالُ مِنها، قُوةٌ كانَتْ قَلْبَ آمْرَأَةٍ أخْلَصَتْ. . وقَلْبُ آمرأةٍ، حِينَ تُخلِصُ، كَونٌ كَبيرٌ.

وتأمَّلْ طَويلاً ما آستَوى التَّأمُّل لَكَ، وأَمْعِنِ النَّظْرَةَ ما آتصَلَتْ عِندَكَ، ثم آعْطِ أُذنَكَ لِروايَةِ ابنِ اسحقَ، تَشْهَدُ حقاً أيَّةَ آمرأةٍ هُناكَ كانَتْ تُظلِّلُ النبوَّةَ، ولَيْسَ كما يعطِفُ الورَقُ حَسْبُهُ الظِّلُّ يُلقِيهِ، بَلْ كما تَقِي الأضَالِعُ. . أقلُّ ما تَهَبُ، أنَّها تَستقبِلُ الجِراحَ، وتجفِّفُ بشِفَاهِ القَلْبِ دَمْعَةَ الأسَى ورَشحاتِ الجُهدِ:

«خَفَّفَ اللَّهُ بخديجةَ عَنْ نبيِّهِ، لا يَسْمَعُ شيئاً يَكرهُهُ، من رَدٍّ عَليهِ وتَكذيبٍ لَهُ فَيُحزِنُهُ ذَلِكَ، إلّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنهُ بها. . إذا رَجَعَ إليها، تُثَبِّتُهُ وتُخَفِّفُ عنهُ وتُهَوِّنُ عَليهِ أمرَ النَّاسِ»(١). . .

(١) راجع سِيرةَ ابنِ هِشامٍ، ج ١، ص: ٢٥٦.

حَبَّاتُ ضَوْء

«بَشِّرْ خَديجَةَ بِبَيتٍ مِن قَصَب»(١) . . ذلِكَ هُوَ وِسامُ الاستحقاقِ الذي نَالَتْهُ مِن تقدِيرِ السَّماءِ، وسَخَتْ بهِ يَدُ اللّهِ عَطاءً كَريماً، حِينَ وَقَفَتْ إلى جنْبِ النبوَّةِ المكافِحَةِ في كلِّ مواقِفِها الأُولى المُرْهِقَةِ. . لكأنَّما كانَت تَسْتَعْذِبُ الأَلَمَ كيفَمَا آستدَارَ، مُتنمِّراً أوْ مُسْتأسِداً.

إنَّها تُقبِلُ عَليهِ مُختارَةً، وتَرْشُفُهُ في نَهَمٍ ورَغبَةِ نَفْس . . وما أدْرانا أنْ لا يَكونَ عَذْباً حَقّاً في حِسِّها، وما أدْرَانا أن لا تَكُونَ - تَسْتَقْبِلُهُ - في فَرْطٍ مِن لَذّةٍ، لا تَبلُغُ إليها أحْلامُنا في الآلام.

ففي حِسِّها آستحوذَ وِجدانٌ مثاليٌّ أسمْى، فهي بِهِ تَطْعَمُ طَعْمَ الأشياءِ، وهي بِهِ تَتَذَوَّقُ ما يعرِضُ لها، أوْ ما قَدْ يعتَرِضُها مِن شُؤونٍ: عامِلُ الشَّجا أكْبرُ العوامِلِ فِيها، ومُسْتَحْلَبُ المرارَةِ هُوَ أغزَرُ ما تَفيضُ بِهِ مِنْ عُصارَة.

وفي أعْصابِها مَشَى ذلِكَ التّرائي الأقْدَسُ، ومِن أمرِهِ أنَّه لا

(١) اللُّؤلُؤ المجوّفُ.

يستَخْفِي ويضمَحِلُّ مَعَ الآلامِ، بَلْ يَزيدُ حِدَّةَ تَألُّقٍ، ويزيدُ فَرْطَ سُطوعٍ كما لَوْ رُكِّبَ في جَناحَيْ تَوَهُّج.

نَعَمْ.. إنها بوَجْهِ مَنْ نَعرِفُ مِن شُهداءِ العَقَائِدِ ـ إنْ لم نَقُلْ بأسْمَى سِمَةً وبأسخى بِشْراً ـ كانَتْ تَسْتَقبِلُ آلامَ الكفَاحِ الذي خَاضَهُ قرينُها النبيُّ وخَاضَتْهُ مَعَهُ، عامِلَةً ماضِيةً وصابِرةً محتسِبَةً، لا ينبِضُ عندها عِرْقٌ بلِينٍ أو تَخَوُّفٍ.. بَلْ هِيَ تَقْطَعُ قَناطِرَ الدُّموعِ والخُطوبِ المتغَوِّلة، ببَسْمَةِ كِبرياءٍ، لَمْ يَعْهَدْ مِثلَها إلَّا بعضُ نَفَرٍ مِنْ صانِعِي التَّارِيخِ.

بِصدرِهَا الرَّحْبِ، كانَتْ تَستَقْبِلُ العاصِفَةَ وشظايَاها المُشْتَعلَة، لا ليكُونَ لها في حِسِّها ذلِكَ الرَّجْعُ المُدَمِّرُ، أو ذلِكَ الوقْعُ الصاعِقُ... وإنَّما ليَجِيءَ أيضاً مادَّةً نَاهِضَةً، تَدْفَعُ بها وتَدفَعُ، وتمدُّ لها في أَخْذِ الطَّريقِ غِلاباً، شأنُهُ اللذَّةُ بالفِكْرِ.

لقد بَان سِرُّ قدَرِها في هذه الحِقْبَةِ، التي قَدَّمتْها بَطلاً ضَخماً مِن أبطالِ الرِّسَالَةِ، يَومَ لَمْ يَكُنْ لهذِهِ الرِّسَالَةِ مِن أبطالٍ، إلا مُحمَّدٌ بِكْرُ السَّماءِ في أرضِ الجَاهِليَّةِ، وإلَّا فَتًى هُوَ بِكْرُ الإيمانِ الحَقِّ فيما وَعَتِ الدُّنيا... مِنْ ورائِهِ والِدُهُ الشَّيْخُ يبارِكُهُ، ويُبَارِكُ قَافِلَةَ الغُرباءِ التي كَأنَّها أَتَتْ على مَناكِبِ الغَمامِ من بَعيدٍ.

«قالَ أبو طَالبٍ لفتَاهُ عَليٍّ: يا بُنَيَّ ما هذا الذي أنْتَ عَليهِ: فقالَ: يا أبَتِ آمَنْتُ باللَّهِ وبرسولِهِ. فأطْرَقَ مَليّاً ليقولَ:

إلزَمْهُ يا بُنَيَّ، أَمَا إنَّه لم يدعُكَ إلَّا إلى الخَيرِ»(١).

(١) راجِعْ سِيرةَ ابنِ هشامٍ، ج ١، ص: ١٥٧.

نَعَمْ، لَقَد بانَ في هـذِهِ الحقْبَةِ ـ وأَتَتْ خـديجةُ خَـلالَها بَـطَلَ بنـاءٍ، لا تُثخِنُهُ الجِـراحُ مهمـا آسْتَفْحَلَتْ، ولا تَهيضُ جَنـاحَـهُ مهمـا دوَّمَتْ ـ سِـرُّ قدَرِهـا، ذاكَ المَاضِي المثْقَـلِ بالأرزاءِ، الـذي ما كـانَ يَنْقَطِعُ عَنْها بِلونٍ إلَّا ليتدَارَكَها بِلونٍ، وهُوَ إذا سَكَتَ عنها فإلى هُدنَـةٍ قَصيرَةٍ.

نَعَمْ لَقَدِ آنكَشَفَ أنَّ القَدَرَ، آنتدَبَ مِن نَفْسِهِ مُـربِّياً لخـديجةَ، وتَعَهَّدها تَعهُّدَ الإعْدادِ. . . فهُو لا يَفْتأُ يبنيها بِناءَهُ، ويصقُلُ أعصابهـا ذلِكَ الصَّقْلَ، ويأخُذُها بتجارِبِـهِ شَيئاً بَعْـدَ شَيْءٍ، ومَنزِلَـةً فَمنزلَـةً. . ليعـودَ فيعمِّقَ مَراسيَ آحتمـالِهـا، ويُفجِّـرَ مَنـابِـعَ ذاتِهـا تَفْجيـرَ الثِّقَـةِ وكبريائِها، تَفجِيرَ البُطولةِ وتَهاويلِها.

أَتَرَى؟. . وهذا ما أَحْسَبُ: أنَّ القَدَرَ في كلِّ أيَّامِها، إنما كـانَ يَصْنَعُهـا ليومِهِ، لهذا اليـومِ، الذي شَـاءَهُ الحَقُّ فاصِـلاً في مَعـرَكَـةِ البَاطِلِ.

* * *

«بَشِّـرْ خَـديجَـةَ بِبَيتٍ مِن قَصَبٍ». . . والقَصَبُ كمـا عَـرَفْنـا مُجوَّفاتُ اللآلىءِ[١].

(١) الحـديثُ أخرجَـهُ البخارِيُّ بسنـدِهِ إلى عائشَـةَ وغيـرُهُ كثيـرونَ. . والقَصَبُ عنـد الجـوهريِّ هـو أنابيبُ من جـوهَرٍ، ونقَـلَ النَّوويُّ عَنْ بعضِهم أنَّـه ذَهَبٌ منـظومٌ بالجواهِرِ، وقيلَ اللُّؤْلؤُ المجوَّفُ كالقصْرِ المُنيفِ. . وعن أبي هُريرَةَ قالَ: قُلتُ يا رسولَ اللَّهِ وما بيتٌ من قَصَبٍ؟ قال: بَيْتٌ من لُؤْلُؤَةٍ مُجوَّفَةٍ، رَواهُ السَّمرقَنْـدي، وفي صحيحِ مُسلمٍ بيتٌ مِن لُؤْلُؤةٍ مجوبَـةٍ، قال الخـطابيُّ مجوبَـةٌ قُطِعَ داخِلُهـا ←

وما أرَوعَهُ صورَةً في الخَيالِ وهُوَ يَرْسمُهُ، بَيْدَ أنَّهُ ليسَ أبداً بأروعَ مِنْ تَضحياتِها، التي صاغَ الخُلدُ هذا البيتَ مِنها، وجاءَ بِهِ مِن تَبلورَاتٍ مِن مُنسَكَبِ أيادِيْها.. فِيهِ مِن طُهرهَا ذلكَ الشُّعاعُ، وفِيهِ مِن نَقائِها رَقَّةُ جَبينِ الملائِكِ، وهالَةُ وَجْهِ النُّسَّاكِ.

لَبِثَتْ في هـذه الحقبَةِ التي تَـوَّجَتْ جَبينَ حَياتِهـا، وأنـاملُهـا ـ كيفَمـا تَحَرَّكتْ ـ تـرُشُّ حَبَّاتِ ضيـاءٍ لتجيءَ مُتناثِـراتِ عُقـودٍ، يُلملِمُ مِنهـا أطواقـاً الخالِـدونَ ومن في طَريقِهِم، وتَستَحِمُّ بـوَهجها، أرواحٌ مَقرورَةٌ تَطلُبُ الدِّفءَ المُنعِشَ..

وتَشْتَـدُّ قُريشُ شِـدَّتَها، وتَـرْكَبُ سَنـامَ شَنـآنِهـا الهـادِرِ بـالبغْي وخديجَةُ في عَينِ اللّهِ تُرَى، تَأخُذُ طريقَها إلى الحَطِيمِ، حيثُ البَيت العَتِيقُ وحيثُ قُرَيشُ الفَائِرَةُ.

تَـأخُـذُ طـريقَهـا غيـرَ حَـافِلَةٍ، في كَنَفِ مَنْ تُـطِلُّ مَن عينيـهِ الشَّمسُ، وإزاءَها فَتّى قالـت الشَّمسُ إنَّ آنعكَـاسَها في عَينيـهِ اللَّتينِ تَرَكَت فيهما أعمقَ أسرارِهَا.

نَعَمْ تَـأخُذُ الـطريقَ ثَابتـةَ القَدَمِ غيـرَ واجفـةٍ ولا مُتـردِّدَةٍ، إلى هُناكَ، تُقيمُ صَلاتَها على اللُّجَّةِ من صَخَبِ المُجتمعِ الحَانِقِ:

فافرغ.. ورَوَى أبو القاسِم آبن مُطَيْر بإسنادِهِ إلى فـاطمة سيِّـدَةِ نِساءِ العـالمينَ، أنَّهـا قالت لأبيهـا: أينَ أمِّي؟ قالَ: في بيت من قَصبٍ لا لَغْوَ فيـهِ ولا نصبَ بينَ مريمَ وآسيةَ آمراةِ فرعـونَ، قالت: أمِنْ هـذا القَصَبِ هو؟ قـال: لا إنَّه المَنـظُومُ بالدُّرِّ واللؤْلُؤ واليـاقوتِ.. والسُّهَيْلِيُّ في الـرَّوضِ الأُنُف ذَهَبَ إلى أنَّ الحديثَ آختصَّهـا بالنَّصِ والتـأكِيدِ على بيتٍ، لأنهـا كانَتْ صـاحِبة بَيتِ الإسْـلاَمِ وهُـوَ تخريجٌ مُستَحْسَنٌ.

«كانَ النَّاسُ يـرونَ رجلاً يُصلِّي ، ووراءَهُ آمْـرَأَةٌ وغُلامٌ، وحشـدٌ يَسخَرُ» . . .

وتَكثُفُ صَحَابةُ مُحمَّدٍ «ويدخُلُ النَّاسُ في الاسلام أرسالاً أرسالاً من الرِّجالِ والنِّساءِ»، وتُبالِغُ قُريشٌ في شِدَّتِها شِدَّةً، وفي عُتُوِّها عُتوّاً، فتأخُذُه وتَأخُذُهُم أخْذَ الطَّيشِ ، وتستقبلُهُ وتَستَقبلُهُم آستقبالَ العَنَتِ، وتتحرَّكُ بِهِ وبِهِمْ تَحرُّكَ الحِقدِ. . . فبَاطِلُ قُرَيشٍ لم يَعُدْ يُطيقُ لُغَةَ العَقْلِ :

«وَقالُوا: لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حتَّى تُفجِّر لنا مِن الأرْضِ يَنبوعاً. . أوْ أنْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ من نَخِيلٍ وَعِنَبٍ، فتفَجِّرَ الأنهارَ خِلالها تفجيراً. . . أو تُسقِطَ السَّماءَ ـ كما زَعَمتَ ـ علينا كِسَفاً. . . أو تأْتي باللَّهِ والملائِكةِ قَبِيلاً. . . أو يكونَ لكَ بيتٌ مِن زُخْرُفٍ. . أو تَرقَى في السَّماءِ، ولَنْ نُؤمِنَ لرُقيِّكَ حتى تُنزلَ علينا كتاباً نَقرؤُهُ. . قُلْ: سُبحانَ رَبِّي! . . . هَلْ كُنتُ إلَّا بَشراً رسولاً».

فهذِهِ الآيَةُ، ليسَ أَبلَغَ منها في تصوير عِنادِ قُريشٍ ومنطِقِها المَحْمُومِ ، وما قَدْ أخَذَت بِهِ مُحمداً وَصَحبَهُ مِن تَعَصُّبٍ يَرْكَبُ حَمَاقَةً وينطَلِقُ بقَسْوَةٍ، وإذا قُريشٌ هُنا وهُناكَ «يتذامَرونَ بينَهُم على مَن في الأحياءِ مِن أصحابِ رسولِ اللَّهِ الذين أسلموا مَعَهُ، فَوَثَبَ كُلُّ حَيٍّ على مَن فِيهِ مِن المُسلِمينَ، يُعذبونَهم ويَفْتِنُونَهم عَنْ دينِهم»(١).

(١) راجعْ سِيرةَ آبن هِشام، ج ١، ص: ١٦٥ ـ ٢٢٠.

وإذا أبـو جَهلٍ هَائِجٌ يَعْقِدُ خيوطَ خُـطَّةٍ فِدائِيَّـةٍ ويُحْكِمُ أمْرَهـا «فَمُحمَّـدٌ قَد أبَى إلاَّ مـا تَرَوْنَ مِن عَيبِ دينِنَـا وتسفِيهِ أحـلامِنا، وإنّي أُعاهِدُ العُزَّى واللاَّتَ: لأجلِسَنَّ لَـهُ غداً بحجَـرٍ ما أطيقُ حَملَهُ، فـإذا سَجَـدَ في صَـلاتِـهِ فضَخْتُ بِـهِ رَأسَــهُ، فـأسلمُــوني عِنـدَ ذلِـكَ أوِ آمنعوني.. وليصنَعْ بي بَنـو عَبدِ مَنـافٍ ما بَـدا لَهُمْ، فيردُّونَ بصـوتٍ واحِدٍ:

إمضِ لما تُريدُ، ما نُسلمكَ أبداً».

ويَطْلُعُ مُحمَّدٌ في بعضِ الطَّريقِ يَوماً، فيثبونَ إليهِ وَثْبَةَ الصَّخْـرِ الجميعِ، ويُحيطُونَ بِهِ إحاطَةَ السِّوارِ بـالمِعْصَمِ يَصْرُخـونَ في وجهه «أنتَ الذي تقولُ كَذا وكَذا لما كانَ يقولُ من عَيْبِ آلِهتِهِم ودِينِهِم.. فيقولُ رسُولِ اللّهِ: نَعَمْ أنا الذي أقـولُهُ... فَيـأخُذُ بعضُهُم بمجْمَـعِ رِدائِهِ يخنُقُهُ، ويهلَعُ قَلبُ أبي بَكرٍ، فينهضُ دُونَهُ وقد قطعَهُ البُكاءُ:

أتقتلونَ رجـلاً أنْ يقولَ ربي اللّهُ.. فيجْـذِبونَـهِ بلحيَتِـهِ جَـذبـاً شَديدَ الوَطْأة».

ويرجِعُ الـرَّسولُ إلى منـزلِهِ عَـاقِدَ النـظرةِ على رِثاءٍ، ومُجتمِـعَ القَسماتِ على شَفَقَةٍ مُكْتَوِيَةٍ ـ وحَاشا مُحمَّداً ـ فما عَقَـدَ نظرَتَـهُ يومـاً على يأسٍ، وما آجتمَعَتْ قَسَماتُه على آكْفِهرارٍ مَن ضَاقَ ذَرْعا.

فَتَستقبِلُهُ خَديجَةُ بِبَسْمتِها التي ما حَالَت عَن بِشْرٍ كانَ يَتزايَـدُها في الملمَّاتِ، وتَأْخُـذُه بنظرَتِهـا المتفائِلَةِ ومـا آنزلَقَتْ إلاَّ عَنْ أمـلٍ، وتفتَـحُ قَلبَهُ على الثِّقَـةِ بالغَـدِ، وأنَّهُ لنْ يُشْـرِعَ بابَـهُ إلاّ لأبنائِـهِ، أبناءِ دعوتِهِ الجديدَةِ.

وإنَّـهُ لكذلِـكَ مِنها. . . إذْ يُحِسُّ بهَـدِير عَميقٍ كـأنّما يَقَـعُ إلى أذنيهِ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ، ويتَّضِحُ وضوحَهُ، ويتدارَكُهُ شِبهُ آنصرافٍ شـارِدٍ بـاتَتْ تَعرِفُ سـرَّهُ عندَهُ، فُتقبِـلُ عَليهِ بفُؤادٍ خـاشِعِ اللفتَـةِ، وبَطرْفٍ مفعمِ اللحْظِ بالوجْدِ، وما هَوَ إلى الوَجْدِ مِن حَنينٍ أقدْسَ.

ومـا هُو حتّى يقبـل النبيُّ ويُقبل، كمـا لوَ أنَّـه تَـوارَى في غيـرِ مكـانِهِ، ويَهُبُّ مُشتـداً إلى أردِيته يَجْمعُهـا عَليهِ، فَقَـد جـاءَهُ الـوَحْيُ «فآصْدَعْ بِمَا تُؤمَرُ» وجاءَهُ الوَحْيُ «وَلاَ تَكُ فِيْ ضِيْقٍ مِمَّا يمْكُرُونَ».

فيبالِغُ النبيُّ في الدّعوةِ إلى اللّهِ، صادِعاً بأمرِهِ، ناهِضاً بـأعباءِ آلتزامِهِ وإن فادِحاً «إنا أنْزلْنـا عَليْكَ قَـوْلاً ثَقيلاً»، ونـاشِطاً إلى الغـايَةِ يُعَبِّد بمنكبَيْهِ الطرِيقَ، ويدفَعُ بصدرِهِ الصخُـورَ المعترِضَـةَ، بين يَديْ قافلتِهِ التي ينبغِي لها أنْ تَسيرَ:

إنَّ ضميرَ الحياةِ يُنادِيها، يُنادِيها وحْدَها لتَصْنَعَ مُجتَمَعَ الأحْيـاءِ مِن جدِيدٍ، وتقُودَ مَرْكَبَةَ التَّارِيخِ.

وقُرَيشٌ لا تَرْعـوي، فهِي تَشْتَدُّ آشْتـدادَها في المكْـروهِ وتبالِـغُ بِهِ، وتُثقِلُ وطأَتَها. . . فيهاجِرُ نَفَرٌ تَسْخو نُفوسُهم بالاغترَابِ والتشرُّدِ، وتَسْخو بِمَا لهذا وهذا مِن مخَاطِرَ أقلُّها البؤسُ، ضَنّاً بـالعقيدَةِ المُثلى التي حَرَّرَتْهم.

وتَنشَطُ خَديجَةُ المقَدَّسَةُ، تُعِينُ العَائِلينَ مِنهُمْ وتزوِّدُ المُعْـوِزِينَ بَينَهُمْ، وتُنْفِق عَنْ جـودٍ لـمْ تعُد تُحسُّ بِـهِ جُوداً بـلْ واجباً، تُنفِقُ دونَ حِسابٍ.

إنَّها باتَتْ تَشعُرُ بأمومَةِ العقيدَةِ شعُورَها بأمومَةِ مَن كـانَتْ لَهُ في اللَّحْمِ والدَّمِ.

وزَوجُها النبيُّ، إن يَكُنْ أعطَى في الأُبُوَّةِ البِذَارَ، فإنَّ مِن حَقِّها أنْ تُعطيَ في الأُمومَةِ اللِّبانَ.

* * *

وكانَ في مُهاجَرَةِ هذا النَّفرِ الكبيرِ، ما ضَاعَفَ صَلَفَ قُـريشٍ، وحَرّكَ عُتُوَّها في القَسْوَةِ أكثرَ فأكثرَ.

فها هِيَ تَبْتَكِرُ في العُقوبَةِ ألأَمَ ما عَرَفَ تَاريخُها، تَبتَكِرُ العُقُوبَةَ بالمقاطَعَةِ الاجتماعِيـةِ على كلِّ ألـوانِها، مِنِ آقتصـادِيَّةٍ وحيـويَّةٍ... ومثلُ هذِهِ المقاطَعةِ في ذلِكَ المجتمَعِ، لأشَدُّ من المَوتِ صَبراً.

إنَّها تَعني الإبَادَةَ بوحْشِيَّةٍ، تَعني إدارَةَ رَحًى ضَخْمَةٍ، بين حَجرٍ منهـا وحَجرٍ، مـا تعرِفُ ومـا لا تَعرِفُ من جُـوعٍ ومرارَةِ ظَمَـإٍ وحِـدَّةِ آلامٍ:

«فآجتَمعُوا وآئتَمَـروا أنْ يَكْتُبوا كِتـاباً، يتَعـاقَدُونَ فِيـهِ على بني هَـاشِمٍ وبني المُطَّلِب: على أنْ لا يَبيعُـوهم شيئاً ولا يَبْتـاعوا مِنهُم، إلى بنـودٍ كَثيرةٍ، وعَلَّقـوا الصحِيفَـةَ في جَـوْفِ الكَعْبَـةِ تَـوْكِيـداً على أنفسِهم».

وكـانَ أبـو طَـالب يـومَـذاكَ، قَلعَـةَ مُحمَّــدٍ التي يَعْتصمُهـا، فتعصِمُـهُ... وعلى أنَّ خُطَّةَ قُـريشٍ الجديـدَةَ مُفْزِعَـةٌ تـدورُ بلسـانِ الرُّعْبِ، لم تَزِدْ أبا طالِبٍ إلاّ رَغْبَةً في الذَّودِ عنهُ، وحرارَةً في الـرَّمْي عن قَوْسِهِ... وينحازُ الهاشِميُّـونَ والمُطَّلِبيُّـونَ إليهِ، ويُقيمُ ويُقيمـونَ

على الجُهدِ المُرمِضِ «ثَلاثَ سنين» وتحبِسُ خَديجَةُ داخِلَ الحِصارِ المضروبِ ثَروَتَها، تُخَفِّفُ مِن نائِبَتِهِ ولا تُبالي أنْ تَنْضَب، وتنبعِثُ مُيَسِّرةً الأسبابَ لكَسرِ هذا الحِصارِ ما أمْكَنَ، أو لشَلِّ أثرِهِ ما أمْكَنَ، وتُؤَلِّبُ ـ ولا تَفْتَأُ ـ ذويْها لإمدادِ المحَاصَرينَ سِرّاً.

وتفعَلُ فَوقَ ما في طَوْقِ البَشَرِيِّ أنْ يَفْعَلَ، ويهُونُ عِندَها، على أنْ لا تَندَحِرَ دَعوةُ بَعلِها العظِيمِ.

وتنجَحُ حركَةُ التأليبِ أيَّ نَجاحٍ، ويستفِيقُ في بعضِ النَّاسِ ضَمائِرُهم، وتمشِي فيها مِثلُ فُوهَةِ «بُركانٍ» يكادُ يثورُ، ويكادُ يتأجَّجُ.

وكانَ في بعضِ الدَّربِ إنسانٌ يتأطَّرُ تأطُّرَ الاستخفاءِ، من ورائِهِ فتىً يحمِلُ شيئاً تأخذُهُ العَينُ، ولكنَّهُ يتحَرَّفُ في المنعرَجَاتِ كَمَنْ يشُدُّ عَليهِ أستارَهَا.

وكانَت عَينُ أبي جَهلٍ هُناكَ تدورُ، كَعينِ أفعوانٍ تَفري الدُّروبَ، فَهَبَّ يَشتَدُّ آشتدَادَ السَّهمِ المُنْطَلِقِ، ويتواقَعُ تواقُعَ القَدَرِ الهَابِطِ، وفي مُقلتَيهِ لَفْتَةُ نسرٍ جائِعٍ... فيَذْهَلُ الرجُلُ، ويسِيخُ الفَتَى في نَفَسِه الذَّاهِبِ، وتقطعُ الصمتَ الواجِمَ أو الكالِحَ، نبرةٌ تَتَوَعَّدُ.

وكانَ الرجلُ حُكَيْمَ بنَ حزامِ بنِ خُويلِد، وكانَ الفتى غُلامَهُ... «يَحمِلُ قمحاً يُريدُ به عَمَّتَهُ خَديجَةَ حَيْثُ هِيَ في الشِّعْبِ مَعَ الرَّسولِ، فتعَلَّقَ بِهِ وقالَ:

أتَذهَب بالطَّعامِ إلى بنَي هَاشمٍ، واللَّهِ لا تَبْرَحُ أنتَ وطعامُكَ حتّى أُفضَحَكَ بمكَّةَ... فجاءَهُ أبو البُختُري ابنُ هِشامٍ، فقالَ:

مـالَكَ ولَـهُ؟. . . فقالَ: يحمِـلُ الـطعـامَ إلى بَني هَـاشِمٍ. فـردَّ أبـو البُخْتُرِي:

طَعـامٌ كـانَ لعمَّتِـهِ عِنـدَهُ بَعَثَتْ إليـهِ بِـهِ، أفَتَمْنَعُـهُ أَنْ يَـأتِيَهـا بطعامِها، خلِّ سَبيلَ الرجُلِ. . . فأبى أبـو جَهلٍ حتى نـالَ أحدُهمـا مِنْ صَاحِبِهِ، فأخَذَ أبـو البُخْتُرِي لحْيَ بَعِيـرٍ فَضَرَبَـهُ بِهِ فَشَجَّـهُ ووطِئَهُ وطأً شَديداً، وحمزَةُ بنُ عَبدِ المُطَّلِبِ قَريبٌ يَرَى ذلِكَ، وهُمْ يكرهُونَ أنْ يَبْلُغَ ذلِكَ الرسُولَ وأصحابَهُ.

وسَعَى سِـرّاً بَعضٌ إلى بَعضٍ بِنَقْضِ الصحيفَـةِ، حتى كـانَتْ زمرَةٌ، فقالَ زُهيـرُ آبنُ أبي أميَّةَ: أنـا أبْدؤُكم فـأكُونُ أوَّلَ مَنْ يتكلَّمُ: فَلمَّـا أصْبحُوا غَـدَوْا إلى أنديَتِهِم، فَـطافَ زُهيرٌ بـالبَيتِ ثُمَّ أقبلَ على النَّاسِ، فقالَ:

يا أهلَ مَكَّةَ، أنأكُلُ الطَّعامَ ونَلْبَسُ الثيابَ وبنو هاشِمٍ هَلْكَى لا يُبـاعُـونَ ولا يُبْتَـاعُ مِنهُم، واللّهِ لا أقعـدُ حتى تُشَقَّ هــذه الصحيفَـةُ القاطِعَةُ الظَّالِمَةُ.

فَهَبَّ أبـو جَهـلٍ يقــولُ: كَـذبْتَ واللّهِ لا تُشقُّ. . . فَجَبَهَــهُ زمعةُ بنُ الأسودِ: أنتَ واللّهِ أكذبُ. ما رَضِينا كِتابَها حِين كُتِبَتْ. . . قال أبو البُخْتُرِي: صَدَقَ زمعَـةُ لا نَرضَى مـا كُتِبَ فيها ولا نُقـرُّ بِهِ. . . . وقالَ المُطعمُ بنُ عَدِيٍّ: صدَقْتُمـا وكَذِبَ مَن قَـالَ غَيرَ ذلِـكَ، نَبْرأُ إلى اللّهِ مِنها ومِمَّا كُتِبَ فيها. . وقالَ هِشـامُ بنُ عُمَرَ نحـواً مِن ذلِكَ، فقالَ أبو جَهْلٍ يُصَرِّفُ بأسنانِهِ:

هـذا أَمْـرٌ قُضِيَ بليــلٍ. . . وأبـو طَـالِبٍ جَـالِسٌ في نَـاحيـةِ

المسجِدِ، فَهَبَّ المُطعمُ إلى الصَّحِيفَةِ يَشُقُّهَا عِندَهُ، وكانَتْ قد أكَلَتْها الأرضَةُ»(١).

وباتَتْ خديجَةُ هانئةً.. لقد كَسَرَتْ طَوقَ قُريشٍ، وأذابَ قلبُها قلبَ الحديدِ، وبَسَطَتْ لِمُحَمَّدٍ الطريقَ مرَّةً أُخرَى إلى مُجتمعٍ أحَسَّ بالهزيمَةِ... يومَ شُلَّت مُقاومتُهُ الاجتماعيَّةُ لأوَّلِ مرةٍ، وبذرَتْ في تربتِهِ بذورَ المُحاسَبَةِ الضميريَّةِ، أيْ بُذورَ تزلْزُلِهِ وتَداعِيهِ، لأنَّها بُذورُ الثَّورَةِ على النَّفسِ.

لَقَدْ كانَ نَقضُ الصحيفَةِ في نَظَري بمثابَةِ نَقْضِ ذلِكَ المجتمَعِ العتيقِ كلِّهِ، وكانَ معركَةَ الظفَرِ المعنويَّةَ بِهِ التي جاءَتْ

(١) راجع سِيرةَ ابن هِشامٍ، ج ١، ص: ٢١٦ ـ ٢٢٧.. نَستَطِيعُ أنْ نَقطعَ بأنَّ أروعَ كِفاحٍ وأبلَغَهُ شأناً في تاريخ العقائدِ، دِينيَّةً كانت أو غيرَها، كان الكفاحَ الإسلاميَّ في هذِهِ الحقْبَةِ، ومِنَ الإثمِ في جَنبِ تاريخنا الاسلاميِّ أنْ لا تُعطى الجهدَ اللازمَ وأن تُهمَلَ هذا الإهمالَ الذريعَ على ما في طَيّاتها مِن طاقَاتٍ تُحيي وتُنشِىءُ.. ولعلَّ مِن أنصعِ ما يُعبِّرُ عَنْ مرحَلةِ هذِهِ الآلامِ الكبيرَةِ شِعرَ أبي طالِب الذي كان يُزلزلُ مُجتَمَع قُريشٍ يومذاكَ زِلزَالَهُ الأشَدَّ، ومِن الخيرِ أنْ نَضَع هُنا مثلاً مُعبِّراً عن ذلِكَ الألَمِ الحيِّ:

وَلَمّا رَأيْتُ القَومَ لا وِدَّ عِندَهُم ... وقد قَطَعُوا كلّ العُرى والوسَائِلِ
وَقَدْ صَارحُونا بالعَداوَةِ والأذَى ... وقد طاوَعُوا أمْرَ العَدُوِّ المزايِلِ
وَقَدْ حَالفُوا قَوماً عَلَيْنا أظِنَّةً ... يَعضُّون غيظاً خَلْفنا بالأنامِلِ
صبرتُ لهُم نَفسِي بَسَمْراءَ سَمْحةٍ ... وأبيضَ عَضْبٍ مِنْ تُراثِ المُقاوِلِ
وأحْضَرتُ عندَ البيتِ رهطِي وإخوتي ... وأمْسَكْتُ مِن أثوابِهِ بالوصَائِلِ
قِياماً مَعاً مُستقبلينَ رِتاجَه ... لَدَى حَيثُ يَقضي حَلْفَهُ كلُّ نافِلِ
أعوذُ بربِّ النّاسِ مِن كلِّ طاعِنٍ ... عَلينا بِسوءٍ أو مُلِحٍّ بباطِلِ

الأُولَى والأخيرةَ ـ على الحقيقةِ ـ وما بَقِيَ فقوَّةُ آستمرارٍ وحركةُ تَطهيرٍ.

وهَا... خَديجةُ المقدسَةُ تُغمِضُ جَفنيها ناعِمَةَ المُقْلَةِ(١)، قَدْ رَأَت ظَفَرَ محمَّدٍ حقاً، رَأَتْهُ في أشْلاءِ ذلِكَ الطَّوْقِ العَاتِي الصرِيعِ، وفي أَمزَاقِ صحيفَةٍ أكلَتْها أرضَةٌ، كأنَّما سكَبَتْ من لُعابِها على بَاطل النَّاسِ، ما سَكَبَتْ مِنهُ على بَاطِلِ الحَرفِ.

لقد أكملَتْ خديجةُ رسَالتها في عَينِ محمَّدٍ، ليُكْمِلَ رسَالَتَهُ في عينِ اللَّهِ.

وكانَ أنِ آرْتَسَما في وعي الدَّهرِ، آرتسامَ سَحابةٍ على تُربَةٍ، بينَهُما الخِصْبُ المُمْرِعُ.

(١) لحقَت السيِّدَةُ خديجةُ بالرفيقِ الأعْلى قَبلَ الهِجرَةِ بخَمسِ سِنينَ، أو بأربعٍ، أو بثلاثٍ وهو الأصحُّ، بَعْدَ أبي طالب بثلاثةِ أيام في شَهرِ رمضانَ، ولها من العُمرِ أربعٌ وستونَ سنةً وستَّةُ أشهرٍ ودُفِنَتْ في الحُجونِ.

قَارُورَةُ المُعْبَد

حتى الايمـانُ . . لِيَطيبَ، لِيَنْسكبَ آنسكـابَ المَـلاَبِ بـالعبَقِ والفَوْحِ ، هو في حاجَةٍ إلى تَخميرٍ، إلى تَعْتِيقٍ.

ولعلَّ ذلِكَ، هو ما خالَطَ النُّسّاكَ الذين آعتزلوا الحياةَ، وما إلى الحَياةِ من أباطِيلِ الزُّخْرُفِ وزُخْرُفِ الأباطِيل، وأَخَـذَ بِهوَى أفئـدَتِهم أخـذاً في الذرواتِ حَيثُ المغـاوِرُ والكُهوفُ، مُغْمَضَـةُ الأَعْيُنِ نِصْفَ إغمـاضٍ ، لتَتَلقَّفَ إنسانـاً شاءَ لَـهُ القَـدَرُ أن يسكُبَ فِيـهِ سِـرَّهُ، وأن يَجعَلَ مِنهُ قلباً إنسانياً أَنقى.

فَهُـو يَحتوِيـهِ، ليصنعَهُ صُنـعَ الجـواهِـرِ الكَـرِيمَـةِ، بـالصَّقـلِ والتصفِيةِ والتهذِيبِ.

إنهم ينـدفعـونَ آنـدفـاعَهم تحت حِسٍّ عَفـويٍّ خـالِصٍ ، قـد يكونُ، ولكِنَّهُ في البَاعِثِ الأَبعَدِ والأعمَقِ مَشدودٌ إلى هذا القَصد.

أتظنُّ في غَرضِ القَدَرِ ـ وما أَسْتَبْعِدُ ـ أنَّ هذِهِ الخلواتِ لهم، ليسَتْ إلا الـزِّقَـاقَ والـدِّنـانَ، كَمَثلِهـا للرَّاحِ التي نصنعُهـا صُنـعَ النَّشوةِ. . ولكنّ هذِهِ عبقريَّةُ الرُّؤى، سامِيةُ الأحلامِ.

ما أدرانا أنْ يَكـونَ ذلِكَ مِن تَعليـلِ القَدَرِ لهم، وأسلوب عملِهِ فيهِمْ، ثمَّ ما أدرَانا أن لا يَكُونَ قَلبُ البَشَرِيِّ، هذا القلبُ نَفسُهُ، وهُوَ في شَكْلِ واحِدَةِ القوارِيرِ، إنَّهُ قارورَةٌ حَقّاً لِمُتَحَلِّبِ الإيمانِ. . . وهُوَ يعلِّلُ فِيهِ تعليلَ الـرَّاحِ بالتعتيقِ، ويعـالِجُ مُعـالَجَةَ العَصيـرِ بالتَّقـطِيرِ والتَّخْمِيرِ.

حتى إذا فُضَّ ختـامُـهُ، انفضَّ عن كَـوْثَـرٍ، عَن ذَاتِ الإنسـانِ المبدِعَةِ، آنفضَّ عن مِثلِ مَعنى الخُلْدِ. . . «إنَّا أعْطَينَاكَ الكَوْثَرْ».

وخديجَةُ المُقـدَّسَةُ، كـانَ لها ذلِـكَ الإيمانُ المعتّقُ حَقـاً، أي كانَ لها ذلِكَ الكوثرُ الروحِيُّ الذي تَدْفُقُ به حَقيقتُها، كنبوعٍ تَمدُّ ولا تنقطِعُ، تفَيضُ ولا تَغِيضُ.

فأعطَتْ للإسلامِ عَطاءً كَريمـاً. . . فقد غَـذّتْ نبيّاً، وتَعهَّـدَت وصيّـاً(١). . . وحَـاشَـا أن أقـولَ صَنَعَتْ، فـأنـا في حِمى مـا ليسَ ببشريٍّ، وإن كانَ لنميرِها الطيِّبِ، لو في غَيرِ هذا الحِمَى، أنْ يصنَعَ وأنْ يُنْشِىءَ.

لقد تعهَّدَتْ عَليّاً أيضاً، أيْ تَعهَّدَت للدعْوَةِ قُطبَها الآخـرَ، يَومَ ضمَّهُ النبيُّ إليهِ ومدَّ عَليهِ وَارِفَ الظِّلّ من جَنَاحِه.

فتركَتْ فِيهِ حَظّاً كما تَركَتْ في النبيِّ حَظّاً، كـانَا لهـا تذكَـارَينِ خالِدَينِ، ما بَقِيَ للإنسانيَّةِ عِرقٌ تَمشي فِيهِ نَبْضَةُ حِسٍّ رَفيعٍ.

(١) روَى عليٌ عن النبيِّ أنّه قالَ: خَيرُ نِسائها مَريمُ وخَيرُ نِسائِها خَديجةُ. . يعني في دُنيـا الأولى وفي دُنيا الثـانيةِ راجـع عُمدة القـاري في شَرحِ صَحيحِ البُخـاري ج ١٦، في فَضَائِلِ خَديجَةَ.

وَجَاءَت مع النُّبوَّةِ، لتقولَ: إنَّه مَعْناها في عبارَةِ اللَّحْمِ والدَّمِ، في عبارتِها الأرضِيَّةِ التي تَجَوْهَرَ فيها التُّرابُ.

ولتقولَ أيضاً: إنها المرأةُ التي تُعطِي، وهي هِيَ التي تُبدِعُ. . . إذا آستعلَتْ آستعلاءَ حقيقَتِها وما آنحدَرَتْ آنحدَارَ أنانِيَّتِها، المتَلَمِّظَةِ تَلمُّظَ الشَّهوَةِ، والمُعربِدَةِ عربَدَةَ السُّكْرِ، والمسْعورَةِ سُعارَ الداءِ.

والمرأةُ ـ هذِهِ الأعصابُ الجميعةُ ـ قَلَّما تَسْتَعلِي، ولكِنَّها إذا آستعلَت تَجيءُ شَيئاً عَظيماً، تَجيءُ مُفتَرقَ تَاريخٍ أيْ قاعِدَةَ تاريخٍ جَديدٍ، ومَصنعَ إبداعٍ، ويَنبوعَ حقَائقَ كُبرَى.

وخديجَةُ المُقدسَةُ، كانَتْ لنا في الإسلامِ، ذلِكَ كلَّهُ. كانَت لنا آمرأةً، على عَضُدَيها، أقامَت دعامَتي قَوْسِ النَّصرِ، ليُطلَّ وجهُهَا من بينهما أبَداً بلألائِهِ.

* * *

والنبيُّ على ما مرَّ بِهِ مِن صُروفٍ كانت قَاسِيةً، إنْ في التَّرْحَةِ أو في الفَرْحَةِ، كانَ لا يُزايِلُهُ وجْهُها الذي كأنما يستلْهِمُه رجَاءً، حين يَسْتَنْزِلُ الرجاءَ وآطمْئناناً حِينَ يَنْشُدُ الاطمئنانَ.

إنَّه لا يفَتأُ يَذكُرُها على أيَّةِ حَالٍ مِن أحوالِهِ كلِّها، ولا يفتأُ يَصِلُه خَاطِرٌ بِها يندَفِعُ بخاطرٍ. . . حتى لأَوْرَثَ ضِيقاً وأثارَ غيرةً. . . وها هِي عائشةُ تُحدِّثُنا حَديثَ مشاعِرِهَا التي أُحفِظَتْ حِيناً، وتوتَّرتْ حِيناً، ثم لم تُطِق بَينهما إلاَّ أن تَلِجَ مُحنقَةً إلى مِحرابِ ذِكراهُ القُدْسِيِّ:

«إستأذَنتْ هَالَـةُ بِنتُ خُويلد أختُ خَـديجَةَ على رسُـولِ اللَّهِ، فعرَف آستئذَان خـديجَةَ في آستئْـذانِها، فـارتاحَ لـذلِكَ فَـرْط آرتياحٍ وقالَ: اللهُمَّ هَالَةُ.

قالَتْ: فَغِرْتُ. فقُلْتُ: ما تذكُرُ مِن عجوزٍ مِن عجـائزِ قُـريشٍ حَمراءِ الشِّدْقَين هَلكَتْ في الدَّهرِ، قد أبدَلَكَ اللَّهُ خيراً مِنها.

فغضِب غضباً حَمِيّاً مـا عهـدْتُـهُ، حتى لقلْتُ: والـذي بَعَثَـكَ بالحقِّ لا أذكُرها بعد هذا إلَّا بخيرٍ»... وفي رِوايـةٍ «كانَ النبيُّ يُكثِـرُ ذِكْرها، فربّما قلْتُ لَهُ: كأنمـا لمْ يكنْ في الدُنيـا آمْرَأَةٌ إلا خـديجةَ، فيقولُ:

كلَّا واللَّهِ، ما أبـدَلَني اللَّهُ خَيراً مِنهـا... إنَّها كـانَتْ وكانَتْ: آمنتْ إذْ كَفَرَ النَّاسُ وصَـدَّقَتْني إذْ كَذَّبَني النَّـاسُ، وواسَتني بمالِهـا إذْ حَرَمني النَّاسُ، ورزَقَني مِنها اللَّهُ الولدَ دُونَ غيرِها مِنَ النِساءِ»[١].

والنبيُّ في غَيرِ الذِّكرى، كانَ يجعلُ لها حظاً أيَّ حظٍّ مِن عَملِهِ ومِن حَياتِهِ، فهُوَ ـ كما روَتْ عائِشَةُ ـ مـا كانَ يبـذُلُ ويُطعِمُ إلَّا جعـلَ خِيارَ بذلِهِ وطَعامِه في خَلائِلِ خَديجَة وصَديقَاتِها بما يَسَعُهُنَّ.

وحِينَ كانَتْ أَمالي الأبوَّةِ أو أيَّةُ العَواطِفِ الأخرى، لا تفعلُ فِيهِ إلَّا يَسيراً، كانَ أيُّمـا أثَرٍ من آثـارِ خَديجَـة يدورُ بِـهِ كطُوفَـانٍ... فقد رُوِيَ:

(١) راجِـع تَفصيـلَ الخَبـرِ في رِوايـاتِـه عِنـدَ البُخـاري في صحيحـه ج ١٦، ص: ٢٧٧ ـ ٢٨٢، بِشَرحِ العَيْني، وعِندَ أحمدَ في المُسنَدِ وعِندَ الطَّبرانيِّ مِن رِوايةِ آبنِ أبي نَجيح.

«لمـا بَعَثَ أهلُ مَكَّـةَ في فِداءِ أسـراهُم بَعْـد بَـدرٍ ـ وكـانَ أبـو العاصِ وهوَ آبنُ هالَةَ أُختِ خـديجَةَ بينَهُم ـ بَعَثَتْ زَوجُـه زينبُ بنتُ مُحمَّدٍ إلى أبِيها:

إنَّه أبو العاصِ، إنْ قَرُبَ فآبنُ عَمٍّ، وإن بَعُدَ فأبو وَلَدٍ وإني قَد أَجَرْتُهُ... وبَعَثَتْ إليهِ كذَلِـكَ بِقلادَةٍ لهـا كانَتْ خـديجَةُ أدخَلَتْهـا بها على أبي العاصِ.

فلمَّا رَأى رسُولُ اللَّهِ القِلادةَ، رقَّ رِقَّةً شديدةً وذَكَرَ خَديجَةَ فلم يَسْتمسِكْ وقالَ للمُسلِمينَ:

إنْ رَأيتُم أنْ تُطلقوا لهَا أسيرَها، وتَردُّوه عَليها فآفْعَلُوا».

***

وآمتدَّ بالنبيِّ عُمرٌ طَوِيلٌ وظَلّتْ على لِسَانِهِ عِبارَةُ الوَفَاءِ المِثـاليِّ المورِقِ:

«إني لأُحِبُّ حَبيبَها».

والنبيُّ بذلِكَ، كأنَّما قَطَّر تَقْطيـراً عُصارَةَ الأقْـداسِ الإسلامِيَّـةِ كُلِّها، وجَعَلَ منها قَارورَةَ مَعبدِهِ... لتَظَلَّ ذِكراها بِالعَبيرِ، تَمـلأُ الجوَّ هُنـاكَ، وتَحْمِلُ أرواحَ المُتَبَتِّلينَ على أجنحـةٍ من فـوحٍ، ورفيفٍ من طُيُوب.